سلسلة قصصية

ألجيرنون بلاكـوود

ترجمة: نبيل بيساليوس

تحريـر: رفعت فرج

جون سايلنس في قضية

اجتياح عقلـي

case 1



مكتبة ٩٨٥

اجتياحٌ عقلي

ألجيرنين بلاكوود

Author: Algernon Blackwood,

John Silence Case I: A Psychical Invasion

Translated from English by:
Nabeel Bysaluos

ترجمها عن اللُّغة الإنجليزية:
نبيل بيساليوس

Edited by:
Refaat Faraj

تحرير:
رفعت فرج

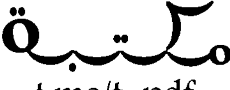
Design by:
Digitalized Kuwait

الإخراج الفني:
ديجيتليزد كويت

الطبعة الأولى | سبتمبر 2020
ISBN: 978-9921-712-34-6
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية - دولة الكويت:
2020/0894



+965 99462219 / +965 51088000
@DarAlkhan_kw Info@daralkhan.com



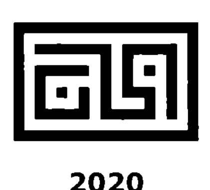
مكتبة | سُر مَن قرأ | 985

جون سايلنس
في قضية

اجتياحٌ عقلي

ألجيرنين بلاكوود

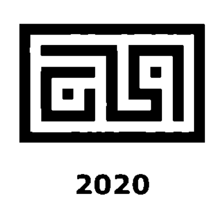
ترجمة
نبيل بيساليوس



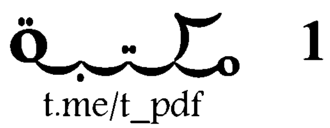
2020

Algernon Blackwood

John Silence Case I: A Psychical Invasion



2020



1

سأل د. جون سايلنس وهو ينظر مرتابًا نوعًا ما إلى السيّدة السويدية الجالسة على المقعد المواجِهِ قائلًا: «ما الذي يجعلُك تظنين أنّه من الممكن أن أكون مفيدًا في هذه الحالة الخاصّة؟». أجابت السيدة: «قلبُك العطوفُ ومعرفتُك بواطنَ الأمور». قاطعها رافعًا أحدَ أصابعِه بإشارة تدلّ على عدم الصبر قائلًا: «آه، من فضلك... آه من تلك الكلمة المخيفة».

ضحكت وقالت: «حسنًا، موهبتُك الرائعة في رؤية الأشياء غير المنظورة، ومعرفتك المدرَّبة الخاصّة بالعمليات التي يمكنُ عن طريقها سحق شخصية ما وتدميرها... هذه الدراسات الفريدة التي اختبرتُها كلَّ هذه السنين».

سرعان ما قاطعها الطبيب مرة أخرى وفي عينيه تعبيرٌ عن الملل وقال: «إن كانت حالةَ انفصام شخصيةٍ فقط، فعليَّ أن أنسحب».

قالت: «إنّها ليست كذلك، ولتكن جادًّا الآن من فضلك لأنّني في حاجة إلى مساعدتك. إن كان اختياري لكلماتي ضعيفًا، فعليك أن تصبر على جهلي بالحالة التي أعرف أنّها

سوف تهمّك، ولا يستطيع أيُّ شخص آخرَ أن يتعامل معها بصورةٍ جيّدة. في الحقيقة لا يستطيع أيُّ اختصاصيّ عادي أن يتعامل معها على الإطلاق، لأنني لا أعرف علاجًا أو دواءً يستطيع أن يعيدَ شعورًا بالمرح قد تلاشى!». أجاب: «لقد بدأتِ في جذب انتباهي إلى حالتك» ثم هيَّأ نفسَه كي يستمعَ إليها.

تنهّدت السيدة سيفندسون تعبيرًا عن امتنانها عندما لاحظته قد طلب من الخادم عدمَ إزعاجِه.

قالت: «أعتقد أنّك قرأتَ أفكاري بالفعل. إنَّ معرفتَك البديهيّةَ بما يدور في عقول الناس الآخرين أمرٌ خارقٌ للطبيعة».

هزّ صديقُها رأسَه وابتسم ووضع مقعده في مكان مناسب، وجهّز نفسَه كي يصغيَ إلى ما كان عليها أن تقولَه. أغمض عينيه مثلما كان يفعل دائمًا عندما كان يريدُ استيعابَ المعنى الحقيقيّ لشرحٍ قد لا يمكن التعبيرُ عنه بصورة كافية، لأنه وجد أنّ من السهل عليه أن يوائم نفسَه مع الأفكار الحيّة الكامنة وراء الكلمات الغامضة بهذه الطريقة.

كان أصدقاء جون سايلنس يعدُّونه غريبَ الأطوار؛ لأنه أصبح -مصادفة- غنيًّا وطيّبًا باختياره. لقد فاق إدراكهم تمامًا أنّ شخصًا له دخلُه الخاصُّ يمكن أن يُكرِّسَ وقتَه لعلاج

الناس، خاصّةً أولئك الذين لا يستطيعون سداد نفقاتِ العلاج، ولقد حيَّرهم ذلك النُّبلُ الأصيلُ لدى شخص يرغب أولًا في مساعدة أولئك الذين لم يستطيعوا مساعدة أنفسِهم. بعد ذلك تركوه مع أجهزته مرضاةً له في الأساس.

كان د. سايلنس طبيباً مستقلًّا، وليس كباقي الأطباء، ولم تكن لديه حجرةُ استشارة أو كاتبُ حسابات أو حتّى سلوك شخص محترف، ولم يتقاضَ أتعابًا، وقد كان من أعماق قلبه إنسانٌ محبٌّ لخير البشر بدرجة أصيلة، وفي الوقت ذاته لم يتسبّب في إلحاق أيّ أذى لزملائه من الممارسين للمهنة لأنه كان لا يقبل إلا الحالات التي لا تعود عليه بأيّ ربح، والحالات التي تثير اهتمامه لسبب ما خاصّ جدًّا. لقد كان يقول إنّ الأغنياء يستطيعون أن يدفعوا، وأنّ من أعوزهم الدهر بإمكانهم أن يستفيدوا من الصدقة المنظّمة، ولكن تلك الطبقة الضخمة من الأفراد أصحاب الدخل القليل جدًّا، والعمّال الذين يكنّون احترامًا لأنفسهم، ومحبّي الفنون، لا يمكنهم تحمّل تكلفة أسبوع من السفر.

لقد كان يرغب في مساعدة هذه الحالات: حالاتٍ غالبًا ما كانت تتطلّب دراسة خاصّة متأنّية؛ أشياء لا يستطيع أيُّ طبيبٍ

أن يمنحَها مقابل جنيه إنجليزيّ، ولا يتوقّع أحدٌ أنه سيمنحها.

لكن هناك جانبًا آخرَ في شخصيّته ومزاولته للمهنة؛ جانبًا نحن الآن مهتمّون به بصورة مباشرة جدًّا؛ لأنّ الحالات التي كانت تروق له على وجه الخصوص لم تكن حالاتٍ من النوع العادي، لكن كانت لها طبيعة مراوغة وصعبة ولا يمكن إدراكُها بالحواسّ، ويمكن وصفُها جيّدًا بأنها محنة نفسية، وعلى أنه كان آخرَ شخص يوافق على هذا التوصيف، إلّا أنّه كان –ودون شكّ– معروفًا لدى الجميع على أنّه «طبيب نفسي».

كي يتعامل مع حالات من هذا النوع الغريب خضع في الحال لتدريب جسمي وعقلي وروحي، وكان تدريبًا طويلًا شديدًا لم يبدُ أنّ أحدًا كان يعرف ماهيّته تحديدًا وأين كان؛ لأنه لم يتحدّث عنه قطّ؛ كما أنه لم تبدُ عليه أماراتُ المُدّعي. الحقيقة أنّه اختفى كلّياً من العالم خمسة أعوام، وبعدما عاد وبدأ ممارسته الخاصّة لم يجرؤ أحدٌ أن يطلق عليه دجّالًا، وكانوا يتحدّثون بجدّية عن أبحاثه الغريبة وعن أصالة أهدافه. كان صوته مشوبًا بدرجة من الشفقة، ولم يكن يشي قطّ بأيّ ازدراء عندما كان يتحدّث عن أساليبهم.

قال لي ذات مرة عندما كنت مساعده الموثوق فيه عدة

سنوات: «إنّ تصنيف النتائج عملٌ لا أُوصي به في أحسن الأحوال، لا، ولن يصل بنا لشيء ولو حتّى بعد مئة عام. إنّه يلعبُ بالطرف غير الصحيح في لعبة خطيرة نوعًا ما، ومن الأفضل جدًّا دراسة الأسباب. حينَها كانت النتائج ستظهرُ بسهولة شارحة نفسها، لأنّ المصادرَ في متناولِ يدِ كلِّ مَن لديهم الشجاعة ليعيشوا حياة تجعلُ من التحقيقات العملية آمنة وممكنة».

أمّا مسألة قوة رؤية الأشياء غير المنظورة، فقد كان موقفُه صحيحًا تمامًا لأنّه كان يعرف كم كانت القوة الطبيعية نادرةً جدًّا، وأنّ ما يسمّى برؤية الأشياء غير المنظورة لا يمثّلُ شيئًا سوى قدرةٍ حادّةٍ على التخيّل.

يقول: «إنّها تتضمّن دقّة متزايدة في الإحساس بأنّ مَن يرى الأشياء غير المنظورة يأسف على قدرته، معترفًا أنّها تضيف إلى الحياة نوعًا جديدًا من الرعب يشبه المحنَ ودائمًا ستجدُ أن هذا هو الاختبارَ الحقيقي».

وهكذا، فقد كان جون سايلنس الطبيبَ الوحيدَ الذي استطاع أن يختارَ حالاتِه، فهو يملك معرفةٌ واضحةٌ بالاختلاف بين مجرّد الهوسِ الهيستري ونوع المحنة النفسية التي كانت تتطلّب قدراتِه الخاصَّة. لم يكن قطّ ضروريًّا بالنسبة له أن يلجأ

إلى أسرار التنجيم الرخيصة، لأنّه بعد أن كان يقوم بحلّ مشكلةٍ بالغة التعقيد يقول: «إنّ أنواع التنجيم بَدءًا من قراءة الخطوط حتّى قراءة أثرِ ثُفْل الشاي هي مجرّد وسائل يحاولون بها إخفاء الرؤية الخارجية بحيث تستعلن الرؤية الداخلية. ما إن يتمّ السيطرة على تلك الوسيلة فلا حاجة بنا إلى أيّ نظام من التنجيم على الإطلاق».

كانت الكلمة المفتاحية مهمة لأساليب هذا الرجل الجدير بالإعجاب، والذي ،يبدو، أن السبب الرئيس خلف قوته، أكثر من أي شيء آخر، هي المعرفة أولا، التي تُمكّن الفكرَ من العمل عن بُعد، والأمرُ الآخرُ أن تكونَ المعرفةُ ديناميكيةً ويمكن أن تنتج أهدافًا مادية.

كان يعبّر عنها قائلًا: «تَعَلَّم كيف تفكّر وتعلَّم أن تتلمّس القوة من مصدرها».

بالنظر إليه، وقد تجاوز الأربعين من العمر، ستجده نحيلًا، ذا عينين بنّيتَين تنطقان بالكثير، وتلمعان ببريق المعرفة وتَشيَان بالثقة في النفس، وفي الوقت ذاته تجبران المرءَ على التفكير في ذلك اللطفِ الرائع الذي نجده أغلبَ الأحيان في أعين الحيوانات. أخفت لحيَتُه فمَه دونَ أن تخفيَ ذلك العزم القاتم

للشفاه والفكّين، وكان الوجه يَشِي بطريقة أو بأخرى بالشفافية وكأنّ تفاصيلَه تلوحُ بدقّة في الضوء. أمَّا جبهتُه الجميلة فيلاحظ المرءُ فيها لمسة سلام لا يمكن تحديدُها، ومصدرُها معرفةُ العقل بما هو دائم في النفس، وقد تسمح بالانزلاق في الخطأ مؤقتًا دون أن تكون لديها القوة على إحداث جرحٍ أو ضيقٍ، بينما تكشف أخلاقُه عن شخصية لطيفة هادئة متعاطفة، وقليلون هم الذين كان بإمكانهم تخمين قوة الهدف التي توقّدت بداخله كشعلةٍ عملاقة.

استمرّتِ السيدةُ السويدية في الحديث وقد حاولت أن تكون واضحةً إلى أقصى درجة. قالت: «أظن أنّني ينبغي أن أصفَها على أنّها حالةٌ نفسيةٌ، وهذا هو النوعُ الذي تميلُ إليه؛ أقصدُ حالة يتوارى سببُها في ألمٍ نفسيّ ما و...».

قاطعها بطريقة حادّة ملزمة بدرجة غريبة وقال: «الأعراضَ أولًا من فضلك يا عزيزتي سفينسكا، وبعد ذلك قدِّمي استنتاجك».

استدارت بحدّة على حافّة مقعدِها ونظرت إلى وجهه مخفضة صوتَها جدًّا لتمنعَ عاطفتها من أن تكشف عن نفسها بوضوح، فكأنّها تخبرُ شخصًا عن شيء غيرِ مناسبٍ وقالت:

«في رأيي هناك عارضٌ واحدٌ لا غير... الخوف... فقط الخوف».

سأل: «أهو خوفٌ حسّيٌّ ملموس؟».

قالت: «لا أظن ذلك، ولكن كيف يمكنني أن أعبّر عن الأمر؟ أظنه رعبٌ نفسيٌّ. ليس بالهوس العادي، فالرجل عاقلٌ تمامًا لكنّه يعيش في رعبٍ مميتٍ من شيء ما».

قال الطبيب مبتسمًا: «لا أعرف ماذا تقصدين بذلك، مع أنّي أفترض أنّك ترغبين منّي أن أفهمَ أنّ أفعالَه الروحية هي التي تتأثّر لا أفعاله العقلية. على أيّ حال، حاولي أن تخبريني باختصار وبالتحديد ماذا تعرفين عن الرجل وأعراضه وحاجته للمساعدة، وأقصد مساعدتي له على الأخصّ، وأن تخبريني كلَّ ما يبدو مهمًّا لهذه الحالة. أعدك بالإصغاء بعناية».

استمرّت في الحديث بجدّية وقالت: «إنّي أحاول، ولكن عليَّ أن أستخدم تعبيراتي الخاصّة، وأن أعتمد على ذكائك في فهمي. إنّه مؤلّفٌ شابٌّ ويعيش في منزل صغير بمنطقة بوتني هيث. إنّه يكتب قصصًا فكاهية من نوعية خاصّة به. يُدعى بيندر. لا بدَّ وأنّك سمعت بهذا الاسم: فيلكس بيندر، آه... كانت لدى الرجل موهبةٌ عظيمةٌ زاوجها بالقوة، وقد بدا

مستقبلُه مضمونًا، أقول «بدا» ولكنّ الأمرَ تحوّل إلى النقيض. لم يعد يستطيعُ أن يكتبَ سطرًا واحدًا بالطريقة القديمة التي كانت تجلب له النجاح».

فتح د. سايلنس عينيه ثانية ونظر إليها وسألها باختصار: «ما زال يكتب إذن، لم تفارقه قدرته». بعد ذلك أغمض عينيه مرة أخرى كي يستمع إليها».

استمرّت في الكلام وقالت: «إنّه يعمل بضراوة لكنّه لا ينتج شيئًا». تردّدت لحظة وقالت: «أو ينتج شيئًا لا يمكنه استخدامه أو بيعه. عمليًا توقّفت مصادرُ رزقه، وهو يكسب رزقَه كسبًا متزعزعًا عن طريق مراجعة الكتب أو القيام بأعمال مستهجنة، وبعضها مستهجنة جدًّا، ومع ذلك فأنا متيقّنة أنّ موهبتَه لم تتخلّ عنه حقًّا ولكنّ الأمرَ مجرّد...». مرة أخرى تردّدت السيّدة سيفندسون بحثًا عن الكلمة المناسبة.

قال الطبيب دون أن يفتح عينيه: «تقصدين توقّفت مؤقّتًا».

انتظرَت لحظة لتتحرّى الدقّة ثم قالت: «لقد انطمست، أو بمعنى أدقّ طمسها شيءٌ ما آخر».

«شخص ما آخر؟».

قالت: «أتمنّى لو كنت أعرف. كلّ ما أستطيع أن أقولَه هو أنّه أصبح مهووسًا، ومات مؤقّتًا حسّه بالدعابة، واستُبدِل بشيء مريع يجعله يكتب بطريقة أخرى. إن لم يتدخّل أحد فسوف يموتُ جوعًا، ومع ذلك فهو يخشى الذهاب إلى طبيب خوفًا من أن يُقال إنّه مختلُّ العقل، وعلى أيّ حالٍ، فنادرًا ما يطلب شخص من طبيب أن يعيدَ له حسّه بالدعابة الذي اختفي مقابل أن يعطيَه جنيهًا إنجليزيًّا، أليس كذلك؟».

«هل جرّب استشارة أيّ طبيب من قبلُ؟».

قالت: «حتّى الآن لا، لكنّه ذهب لبعض القساوسة والأتقياء ولكنّهم يعرفون القليل جدًّا، وذكاؤهم وتعاطفهم كذلك قليلٌ جدّاً. إنّ معظمَهم مشغولون جدّيًا بشدّة بالحفاظ على كرسيّه».

أوقف جون سايلنس تقريعها بإيماءة وسألها بلطف: «وكيف تعرفين الكثير جدّاً عنه؟».

أجابت: «أعرف السيّدة بيندر جيّدًا. أعرفها قبل أن تتزوّج به».

سأل: «هل من الممكن أن تكون هي السبب؟».

أجابت: «ليست هي السبب على الإطلاق. إنّها امرأة

مخلصة وفي غاية التهذُّب، وعلى أنّها ليست ذكية جدًّا ولا تتمتّع بحسّ دعابة، حتّى إنّها تضحك دائمًا في الوقت الخطأ، لكن ليست لها أدنى علاقة بسبب ألمه، وقد خمَّنتْ بالفعل حالته من ملاحظتها له وليس من القليل الذي أخبرها به. كما تعلم، إنّه رفيقٌ محبوبٌ حقًّا ومجتهدٌ وصبورٌ، وكلُّ هذا يستحقّ الإنقاذ».

فتح د. سايلنس عينيه وقرع الجرس ليطلب شايًا. لم يحصل على معلومات عن حالة هذا الكاتب الفكاهي بدرجة أكبر من المرة الأولى عندما جلس ليستمعَ للأمر، لكنّه أدرك أنّه مهما قالت صديقته السويدية من كلمات فلن يساعده هذا على كشف الحقائق الفعلية. إنّ المقابلة الشخصية مع المؤلّف ذاته هي وحدَها التي تستطيع أن تفعل ذلك.

قال مبتسمًا بينما تصبُّ الشاي: «المؤلّفون الفكاهيون جميعًا يستحقّون أن ننقذهم. لا يمكن أن نفقد واحدًا منهم في هذه الأيام الصعبة. سأذهب لرؤية صديقك في أول فرصة تتاح لي». شكرته بكلمات كثيرة فيّاضة متقنة، واستطاع بصعوبة أن يُبقيَ على لهجة المحادثة الرسمية.

نتيجة لهذه المحادثة ولمعلومات أكثر حصل عليها بوسائله

الخاصّة ومن سكرتيرته، أزَّت سيّارته ذات يوم بعد الظهيرة، بعد أيام قليلة، في بوتني هيل كي يتمَّ لقاؤه الأولُ مع فيلكس بيندر، الكاتب الساخر الذي كان ضحيةَ مرضٍ نفسي غامض، طمس حسَّه بالدعابة وإحساسه بما هو مضحكٌ، وهدّد بتدمير حياته وموهبته. من المحتمل أنّ رغبة الطبيب في المساعدة كانت بقوة رغبته نفسها في المعرفة والبحث.

وقفت السيّارة مطلقةً خريرًا كما لو أنّ نمرًا أسودَ كبيرًا كان يرقدُ مختبئًا داخل غطاءِ محرّكِها. خرج الطبيب الطيّب النفسي كما ينادونه أحيانًا، من سيّارته وسط الضباب وسار عبر الحديقة الصغيرة جدًّا التي كانت تحوي شجرة شوح متفحّمة وشجيرة غار غير مكتملة النموّ. كان المنزل بالغَ الصغر. قرع الطبيب جرس الباب وبعد برهة ظهر ضوءٌ فجأة في الصالة فرأى الطبيب امرأة جميلة كانت ترتدي ثيابًا رمادية اللون، وسقط نور الغاز على كتلة من الشعر الممشّط ناصع اللون.

كانت هناك طيورٌ محنّطةٌ متربةٌ ورماحٌ وثيابٌ إفريقية رثّة معلّقة على الحائط خلفها. كان هناك -أيضًا- طبقُ نُحاسٍ مليءٌ ببطاقات كبيرة جدًّا. لمحت عينُه سريعًا سلّمًا مظلمًا داخل المنزل. كانت عينا السيدة بيندر مستديرة مثل عين

الطفل، فقامت بتحية الطبيب بعاطفة فيّاضة لم تستطع إخفاءها وحاولت أن تبدوَ ودودةً بصورة طبيعيّة. من الواضح أنّها كانت تتطلّع إلى وصوله، فسبقت الخادمة عدوًا وكانت تلهثُ قليلًا.

قالت: «أرجو ألا تكون قد انتظرت طويلًا. أظنُّ أنّ حضورَك شيءٌ طيّبٌ جدًّا». بعد ذلك توقّفَت عن الحديث فجأة عندما رأت وجهه في نور مصباح الغاز. كان هناك شيءٌ ما في نظرة د. سايلنس لم تُشجّع على الحديث إذ كان جادًّا جدًّا.

قال: «مساء الخير مدام بيندر، لقد تأخّرت قليلًا بسبب الضباب. أنا سعيد برؤيتك». قال ذلك بابتسامة هادئة تمامًا كسبت ثقتها، ومع ذلك بدت أنّها تدين الإفراط في الحديث دون ضرورة. دخلا حجرة جلوس قذرة في مؤخّرة المنزل، لقد كان أثاثها مهندمًا لكنّه كان كئيبًا، فالكتبُ مرتّبة على رفّ المدفأة. من الواضح أنّهم قد أشعلوا النّار من فورهم، فقد كان الدخان ينفث بقوة في الغرفة.

قالت: «أخبرتني السيّدة سيفندنون أنّك قد تستطيع الحضور، وأعتقد أنّ حضورك شيءٌ طيّب جدًّا لأنّ حالة زوجي غريبة جدّا كما تعلم، حتّى إنّي متيقّنة تمامًا أنّ أيّ طبيب عادي سيُوصي في الحال بنقله إلى مستشفى الأمراض

العقلية». تجرّأت هذه المرة -أيضًا- وقالت هذا الكلام وهي تنظر إلى وجهه برضا مفصحة عن قلقها ولهفتها في كلّ إيماءة.

سألها د. سايلنس بلطف: «أليس موجودًا؟».

شهقت وسألت: «في مستشفى الأمراض العقلية؟ لا... ليس بعد!».

ضحك وقال: «أقصد في المنزل».

تنهّدت بشدّة وأجابت: «سيعود في أيّ لحظة، ولكنّ الحقيقة أنّنا لم نتوقّع حضورَك مبكّرًا جدًّا؛ أقصد أنّ زوجي لم يعتقد أنّك ستأتي من الأساس». من الواضح أنّها شعرت بالراحة عندما رأته يضحك.

بادرها قائلًا: «يسعدُني دائمًا أن آتيَ عندما أكون مطلوبًا حقًّا وبإمكاني تقديم يد العون. ربّما من الأفضل عدم وجود زوجك لأنّنا الآن بمفردنا وتستطيعين أن تخبريني بشيء ما عن مصاعبه، لأنّني -حتّى الآن وكما تعلمين- سمعت القليل جدّاً».

ارتعش صوتها عندما شكرته، وعندما جلس على مقعد بجوارها وجدت صعوبة حقيقة في أن تجد الكلمات التي تبدأ بها. بدأت بخجل واستمرّت بكلمات مندفعة متقطعة يشوبُها

القلقُ وقالت: «في المقام الأول سيكون مسرورًا أنّك حقّاً أتيت لأنه قال إنّك الشخص الوحيد الذي يقبل أن يراه؛ أقصد الطبيب الوحيد، ولكن بالطبع هو لا يعرف كم أنا خائفة وكم مقدار ما لاحظته. إنّنا ندَّعي أنّه مجرّد انهيار عصبي وأنا متأكّدة أنّه لا يدرك كلَّ الأشياء الغريبة التي لاحظته يقوم بها، ولكنّي أفترضُ أنّ الأمر الرئيس هو...».

قال الطبيب مشجّعًا إيّاها عندما لاحظ تردّدها: «نعم، الشيء الأساسي يا مدام بيندر. هل الأمر هو أنه لا يظن أنّنا لسنا بمفردنا في المنزل؟ أخبريني بمزيد من الحقائق... الحقائق وحدَها».

قالت: «لقد بدأ الأمر في الصيف الماضي عندما عدتُ من أيرلندا وقد كان هنا بمفرده مدّة ستة أسابيع، وظننت أنّه يبدو متعبًا متوعّكَ المزاج، نظرته زائغة ووجه مرهق، أتفهمني؟ كان يبدو عليه الإرهاق. قال إنّه كان يكتب بكدّ ولكنّ إلهامَه خذله الى حدّ ما، ولم يكن راضيًا عن عمله. كان حسُّه بالدعابة يفارقه، أو أنّه كان يتحوّل لشيء آخر. لقد صرَّح أنّ هناك شيئًا في المنزل حال بينه وبين حسّه بالدعابة».

«آه... شيء حال بينه وبين حسّه بالدعابة. الآن نحن نقترب من لبّ الموضوع».

استأنفت الكلام بطريقة غامضة وقالت: «أجل، وظلّ يردّد ذلك».

سألها الطبيب مشفقًا عليها: «ما الذي فعله وجعلك تظنين أنه أمرٌ غريبٌ؟ اختصري وإلا، فقد يأتي هنا قبل أن تنهي حديثك».

قالت: «أشياء صغيرة جدًّا، وكلّها بدت مهمّة بالنسبة لي. لقد غيَّر حجرة عمله من المكتب، كما نطلق عليها، إلى حجرة الجلوس. قال إنّ شخصياته أصبحت غريبة وفظيعة في المكتبة، لقد تغيّرت، ولذلك شعر برغبة في كتابة التراجيديات المحبطة، الفاسدة، تراجيديات لأنفس محطّمة، لكنّه الآن يقول الشيء نفسه عن حجرة الجلوس وعاد الى المكتبة مجدّدًا».

استمرّت في الحديث بسرعة متزايدة وإيماءات لا حصر لها وقالت: «أنت تفهم أنه ليس لدي الكثير لأخبرك به، أقصد أنها أشياء صغيرة جدًّا يفعلها ويقول إنّها مريبة. الذي يخيفني هو أنه يزعم أنّ هناك شخصًا ما آخر في المنزل طوال الوقت، شخصًا ما لم أره قطّ. لا يقول ذلك فعلًا لكنّني رأيته واقفًا على السلالم ليدع شخصًا ما آخر يمرّ! رأيته يفتح بابًا ليسمح لشخصٍ ما بالدخول أو الخروج، وغالبًا ما يضع مقاعد في غرف نومنا كما

لو أنّها لشخصٍ ما آخر كي يجلس عليها. أوه... أوه نعم»، ثم صاحت قائلة: «مرة أو مرتين».

ثم توقّفت مدّة قصيرة ونظرت حولها في رعب.

«إذن؟».

استأنفت حديثها سريعًا كما لو أنّها سمعت صوتًا أزعجها وقالت: «مرة أو مرتين سمعته يجري داخل الحجرات وخارجها لاهثًا كما لو أنّ شيئًا ما يطارده». فُتح الباب بينما كانت تتحدّث ودخل رجل الحجرة، فقطعت كلماتها قبل أن تكملها. كان مكفهرًا شاحب اللون وشعره الداكن ينمو قليلًا حول الصدغَين. كان مرتديًا بذلة رثّة مصنوعة من الصوف السميك الناعم. كان التعبير المرتسم على وجهه يدلّ على أنّه كان مرتعبًا ومطاردًا. كان التعبير قد يتحوّل في أيّ لحظة إلى رعب، ويعلن عن عدم قدرته على ضبط النفس تمامًا. في اللحظة التي رأى فيها زائره، ارتسمت ابتسامة على ملامحه المنهكة وتقدَّمَ نحوه كي يصافحَه.

قال بصوت خفيض يشي بالاحتياج: «تمنّيتُ أن تأتيَ. قالت السيدة سنفسون إنّك قد تتمكّن من أن تجد وقتًا. أنا سعيد جدًّا برؤيتك يا د. سايلنس. دكتور... أليس ذلك؟».

ضحك الطبيب فقال: حسنًا، إنّي أستحقّ هذا الوصف ولكن نادرًا ما أناله. أنت تعلم أني لا أمارس المهنة بانتظام، بمعنى أنّني أتعامل مع الحالات التي تهمّني بوجهٍ خاصّ أو...».

لم ينته من العبارة؛ لأنهما تبادلا نظرة عطف جعلت من العبارة غير مهمّة.

قال المؤلّف: «لقد سمعت عن عطفك الكبير».

قال الطبيب بسرعة: «إنّها هوايتي وميزتي».

قال المؤلّف وقد اعتراه ملل: «أنا واثقٌ من أنّك سوف تظن ذلك عندما تستمع إلى ما ينبغي لي أن أخبرك به».

شقّ طريقه عبر الصالة إلى غرفة التدخين حيث يستطيعان التحدّث بحرّية من دون إزعاج. أغلق باب غرفة التدخين حتى يكونا في عزلة، ثم تغيّر موقف بيندر وأصبح رزينًا. جلس الطبيبُ أمامه حتّى يستطيعَ مراقبة وجهه الذي كان يبدو شاحبًا جدًّا. من الواضح أنّه تكبّد الكثير كي يشرح مشكلته. بدأ حديثه بجفوة تامّة ممعنًا النظر في أعين الطبيب فقال: «في اعتقادي أنّ ما أعاني منه هو محنة نفسية عميقة».

قال د. سايلنس: «لقد أدركت ذلك في الحال».

قال المؤلّف: «بالطبع أنت قد أدركت ذلك، لا بدَّ وأنّ الجوَّ المحيط بي ينقل ذلك بدرجة كبيرة إلى أيّ شخص لدية بصيرة نفسية. بالإضافة إلى ذلك فأنا متأكّد أنّك، كما سمعت عنك، طبيب نفسي حقًا أكثر من كونك مجرد معالج للجسد، أليس كذلك؟».

عاود الطبيب كلامه وقال: «إنّ تقديرك لي كبير جدًّا... إنّي أفضل الحالات النفسية أولا، كما تعلم، وبعدها الحالات الخاصّة بالجسد».

قال المؤلّف: «نعم، أنا أفهم ذلك جيدًا. لقد اختبرت اضطرابًا غريبًا ليس في جسدي، أقصد أن أعصابي على ما يرام وأيضا جسدي. لا أعاني من أيّ سبب لذلك الخوف الشديد الذي اعتراني بطريقة غريبة وأول مرة».

مال جون سايلنس إلى الإمام لحظة وأمسك بيد المتكلّم لثوانٍ قليلة وأغلق عينيه كعادته. لم يكن يتحسس نبضه أو يقوم بأيّ من تلك الإجراءات التي عادة ما يقوم بها الأطباء. لقد كان فقط يتمعّن في إيقاع حالة الرجل العقلية حتّى يمكنه تكوين وجهة نظره، وهكذا يستطيع أن يعالج حالته بعطف حقيقي.

من يلاحظه عن قرب ربّما يلمح رجفة خفيفة تسري في جسده عندما يمسك بيده لثوانٍ قليلة.

قال بشكل لطيف واهتمام شديد تاركًا اليد: «أخبرني بصراحة تامة يا سيد بيندر عن كلّ الخطوات التي أدّت الى بداية هذا الاجتياح. أقصد أن تخبرني عن ماهية المخدر ولماذا تناولته وكيف أثر فيك؟».

صرخ المؤلّف بدهشة واضحة وقال: «إذن، فأنت تعرف أنّ الأمر بدأ بتناول مخدر!».

قال الطبيب: «إنّي أعرف ذلك فقط عن طريق ملاحظتي لك وتأثيره فيّ. أنت في حالة نفسية مدهشة. ثمّةَ أجزاء معيّنة من محيط جسدك تتذبذب بمعدّل أكبر بكثير من الأخرى. هذا تأثير المخدر لكن ليس المخدر العادي. اسمح لي أن أنتهى من كلامي، من فضلك. لو انتشر معدّل الذبذبة في كلّ أنحاء جسدك ستصبح بالطبع مطلعًا على عالم أكبر كثيرًا من العالم الذي تعرفه. من ناحية أخرى، إذا عاد الجزء المتسارع الى معدله المعتاد، فسوف تفقد هذا الإدراك الحسّي العرضي والمتزايد الذي لديك الآن».

صاح المؤلّف قائلًا: «أنت تدهشني! لأنّ كلماتك تصف

تحديدًا ما أشعر به...».

استمرّ الطبيب في حديثه وقال: «إني أذكر هذا عرضًا فقط كي أعطيَك ثقة قبل أن تقترب من السبب الحقيقي لمحنتك. كما تعلم فإنّ نفاذ البصيرة كان نتيجة تلك الاهتزازات، والقدرة على الاستبصار تعني أن تصبح حسّاسًا للاهتزازات بدرجة متزايدة. إنّ يقظة الأحاسيس الداخلية التي نسمع عنها كثيرًا جدًّا لا تعنى أكثر من ذلك. قوة رؤية الأشياء غير المنظورة الجزئية لك يمكن تفسيرها بسهولة. الشيء الوحيد الذي يُحيِّرني هو كيف يمكنك الحصول على المخدر، لأنه ليس من السهل الحصول عليه في صورته النقية، وليس بإمكان أيّ تركيبة مزيّفة أن تعطيك القوة الدافعة الشديدة التي أرى أنّك اكتسبتها. لكن، من فضلك، استمرّ الآن وأخبرني بقصّتك كما يتراءى لك».

استمرّ المؤلّف وقال: «لقد حصلت على هذا النوع من الحشيش في الخريف الماضي عندما كانت زوجتي بعيدة عن المنزل. لست مضطرًّا أن أشرح كيف حصلت عليه لأنّ لا أهمّية لذلك، لكنّه كان مستخرجًا من السائل الأصليّ ولم أستطع مقاومة إغراء أن أقوم بعمل تجربة. إنّ إحدى تأثيراته

هي التسبّب في ضحك شديد...».

قال الطبيب: «أجل، أحيانا».

قال المؤلّف: «أقوم بكتابة الحكايات الهزلية، وتمنّيت أن أزيد من شعوري بالضحك كي أرى الفكاهة من وجهة نظر غير طبيعية، وأردت أن أدرس ذلك قليلًا إذا كان ذلك ممكنًا و...».

قال الطيب: «أخبرني!».

قال: «تناولت جرعة تجريبية. صُمْتُ ستّ ساعات كي أُسرِّع من تأثير المخدر، وحبست نفسي داخل هذه الحجرة وأعطيت أوامر بعدم إزعاجي، ثم تجرعتها وانتظرت».

سأل الطبيب: «ماذا عن التأثير؟».

تابع: «انتظرت ساعة، ساعتين، ثلاث ساعات، أربع، خمس، لم يحدث شيء. لم يأت الضحك في الحجرة أو على بعد مئة ميل».

قاطعه الطبيب وقال: «دائمًا ما تقلُّ استفادتنا من مخدر لا نثق فيه بصورة كاملة».

استمرّ المؤلّف في حديثه وقال: «في الساعة الثانية صباحًا

شعرت بجوع وتعب شديدَين حتّى إنّي قرّرت أن أتوقّف عن التجربة ولا أنتظر بعد ذلك. شربت بعضًا من اللبن وذهبت إلى الفراش في الدور العلوي. شعرت بالتفاهة وخيبة الأمل. سقطت في النوم في الحال، ولا بدَّ أنّي قد نمتُ حوالي ساعة، ثم استيقظت فجأة إثرَ سماعي ضجّة كبيرة. لقد كان صوت ضحكي! كنت أرتجّ من السعادة. كنت مدهوشًا في بادئ الأمر وظننت أنّي كنت أضحك في الحُلم، ولكن بعد لحظة تذكّرت المخدر وكنت مسرورًا أنّي حصلت على تأثير استمرّ طوال المدة، لكنّي أخطأت تقدير الوقت. كان الشيء الوحيد غير اللطيف هو شعور غريب بأنّي لم أستيقظ بصورة طبيعية، لكنّ شخصًا ما آخرَ هو الذي أيقظني عمدًا. خطر هذا على بالي كحقيقة مؤكّدة وسط ضحكي الصاخب وأحزنني».

سأله الطبيب وهو يصغي بانتباه كبير لكل كلمة: «من كان ذلك الشخص في ظنك؟».

تردّد بيندر وحاول أن يبتسم وهو يفرك شعره المنسدل على جبينه بانفعال.

قال الطبيب: «عليك أن تخبرني بكلّ انطباعاتك، حتّى تخيّلاتك، لأنّها مهمّة تمامًا مثلما تدرك بالطبع».

قال بيندر: «كانت لديَّ فكرة غامضة أنّ شخصًا ما اتصل بحُلمي المنسي، شخصًا ما كان بداخلي أثناء نومي، شخصًا ما لدية قوة وقدرة كبيرتَين، شخصية غير عادية تمامًا وأنا على يقين أنها امرأة».

سأله سايلنس بهدوء: «أهي امرأة صالحة؟».

شعر بيندر بفزع قليلًا من السؤال وتورّد وجهه الشاحب، يبدو أنّ السؤال أدهشه، لكنّه هزّ رأسه بسرعة بنظرة رعب لا يمكن تفسيرها.

أجاب باختصار: «شريرة، شريرة بدرجة مرعبة، معجونة من شرّ خالص ممزوج بانحراف مؤكّد؛ إنّه انحراف العقل غير المتزن».

تردّد لحظة ثم نظر إلى مخاطبه بحدّة. ظهرت أمارات الشكّ في عينيه.

ضحك الطبيب وقال: «لا، لا تظنّ أنّي أعتقد أنّك مجنون. إنّ هذا أمر بعيد جدًّا. أنا مهتمّ جدّاً بقصّتك وأنت تزوّدني دون أن تشعر بعدد من الأدلة عندما تحكى القصة. كما تعلم أنّ لديَّ معرفة تخصّ هذه الأمور النفسية الغامضة».

سرعان ما واصل الراوي حديثه بعد أن هدأ وقال: «كنت أرتجّ من ذلك الضحك الشديد مع عدم وجود فكرة واضحة عن الشيء الذي كان يسليني، وجدت صعوبة كبيرة جدًّا في النهوض من أجل أن أحضر الكبريت لئلا أخيف الخدم من انفجاري من الضحك. عندما أضأت الغرفة وجدتها فارغة بالطبع، وكان الباب مغلقًا كالعادة. تحكّمت في فرحتي بصورة أفضل وهبطت الى الطابق السفلي. رجوت أن أسجّل مشاعري، فحشوت فمي بمنديل كي لا أصرخ عاليًا ويصل هوسي إلى كلّ الموجودين بالمنزل».

سأل الطبيب: «وماذا عن وجود هذا الـ... هذا الـ...؟».

قال بيندر: «كان يحوم حولي طوال الوقت، ولكن في الوقت الحالي يبدو أنّه قد انسحب. من المحتمل -أيضًا- أن يكون ضحكي قد قتل كلّ المشاعر الأخرى».

سأل الطبيب: «كم المدة التي استغرقتها كي تهبط إلى الطابق السفلي؟».

قال بيندر: «كنت على وشك أن أخبرَك بذلك. أفهم أنّك على علم بكلّ أعراضي مقدّمًا؛ لأنّني بالطبع ظننت أنّي لا ينبغي أبدًا أن أصل إلى الأسفل. بدا أنّ كلّ درجة من درجات

السلالم استغرقت خمس دقائق. مع ذلك تحرّكت سريعا وحاولت أن أندفع إلى الأمام دون جدوى. من الواضح أنّي مشيت دون التقدّم إلى الأمام ولا بدَّ أنّي بهذا المعدّل كنت سأستغرق أسبوعًا كاملًا كي أصلَ إلى بونتي هيل».

قال الطبيب: «أحيانًا ما تغيّر الجرعة التجريبية من معدّل الوقت والمسافة».

قال بيندر: «ولكن عندما وصلت أخيرًا إلى غرفة المكتب وأضأت الغرفة حدث تغيير مفاجئ شنيع كوميض البرق. لقد كان مثل انهمار كمّية من الماء المثلّج وسط هذه العاصفة من الضحك».

سأل الطبيب وهو يميل إلى الأمام محدّقًا في عينيه: «نعم... ماذا؟».

قال بيندر خافضًا صوته وهو يتذكّر ما حدث: «لقد سيطر عليّ الرعب تمامًا».

توقّف عن الكلام لحظةً ومسح جبينه. سيطرت نظرة عينيه المرتقبة على الوجه كلّه ومع ذلك، طوال الوقت كانت أطراف فمه تشي بضحك ممكن كما لو أنّ استحضاره لتلك الفرحة

ما زال يسليه. كان امتزاج الخوف بالضحك غريبًا جدًّا على وجهه، وأضاف مصداقية كبيرة لقصّته، وكذلك تعبيرًا غريبًا من الرعب البادي على إيماءاته.

كرَّر الطبيب الكلام بهدوء فقال: «رعب أليس كذلك؟».

قال بيندر: «نعم، رعب، لأنّه مع أنّ الشيء الذي أيقظني بدا أنه اختفي لكن ذكراه كانت لا تزال تخيفني حتّى إنّي تهاويت على المقعد. بعد ذلك أغلقت الباب وحاولت أن أتجادل مع نفسي، ولكن المخدر أطال من حركاتي جدًّا حتّى إنّي استغرقت خمس دقائق كي أصل إلى الباب وخمس دقائق أخرى كي أعود إلى المقعد مرة أخرى. استمرّت نوبة الضحك في داخلي، ضحك مفيد للنفس هزّني مثل عصفة ريح، حتّى رعبي غالبًا ما كان يجعلني أضحك. آه يا د. سايلنس، أستطيع أن أخبرك أنّ ذلك الخليط من الخوف والضحك كان رذيلًا تمامًا. حينئذ، وفي الحال، قامت الأشياء الموجودة في الحجرة بتقديم جانبها المضحك لي مرة أخرى وهيَّأتني للضحك بدرجة أشدّ ممّا قبل. كانت خزانة الكتب مثيرة للضحك وبدا المقعد ذو المسندَين كمهرج تمامًا، وكانت ساعة الحائط الموضوعة على رفّ المدفأة تبدو لي مضحكة

حتّى إن الكلمات تعجز عن وصفها، أما حافظة الأوراق وأيضًا المحبرة الموجودة على المكتب داعبتاني، حتّى إنّي ضحكت بصوت عالٍ وارتجّ جسدي وسالت الدموع على وجنتيَّ، أمّا مسند الأقدام! آه، يا لَه من مسند أقدام سخيف!».

تمدّد في مقعده ساخرًا من نفسه، رافعًا يديه عندما فكّر في ذلك. عندما نظر إليه د. سايلنس ضحك أيضًا.

قال د. سايلنس: «استمرّ من فضلك، أنا أفهمك تمامًا أعرف شيئًا ما عن الضحك الذي يتسبّب فيه الحشيش».

استجمع المؤلّف قواه واستأنف كلامه وأصبح وجهه جادًّا مرة أخرى وقال بسرعة:

«كما ترى، كان هناك رعب مبالَغ فيه دون أيّ سبب واضح. عرفت أنّ المخدر تسبّب في الضحك لكنّي لم أستطع أن أتخيّل سبب ذلك الرعب. كان الخوف موجودًا خلف الضحك في كلّ مكان. لقد كان رعبًا متنكّرًا في قبّعة مهرج. أصبحت ساحة لعاطفتين متناقضتين. بعد ذلك وتدريجيًا ازداد اعتقادي أنّ السبب في هذا الخوف كما أطلقت أنت علية الآن، هو اجتياح الشخص الذي أيقظني. لقد كانت شريرة تمامًا، مؤذية لي أو على الأقلّ لكل ما كان يتمنّى الخير بداخلي. وقفت هناك أتصبّب عرقًا وأرتعش

ساخرًا من كلّ شيء في الحجرة، وسيطر على قلبي هذا الرعب الذي يبدو بريئًا، وكانت هذه المخلوقة تُدْخِل...تُدْخِل...».

تردّد مرة أخرى مستعملًا منديله. سأله الطبيب: «ما الذي كانت تدخله؟».

استمرّ في حديثه وهو ينظر حول الغرفة بانفعال وقال: «كانت تدخل أفكارًا في عقلي. كانت في الواقع تسترق السمع إلى تيّار فكري كي تطفئه وتُشغِّل خاصتها. كم كان ذلك يبدو مجنونًا! أعرف ذلك لكنّه حقيقي. إنها الطريقة الوحيدة التي أستطيع أن أعبر بها عنه. إضافة إلى ذلك، فعلى أن العملية أرعبتني فإنّ المهارة التي تمّت بها جعلتني أنفجر في الضحك من جديد على حماقة الناس. إنّ طرقنا الجاهلة غير المتقنة في تهذيب عقول الآخرين، التي تختصّ بتثبيت الأفكار عن طريق الحفظ والتكرار وما شابه ذلك، قد غمرتني بالضحك عندما أدركت هذه الطريقة البارعة والشيطانية، ومع ذلك كان يبدو على ضحكي أنّه أجوف ومخيف وأنّ الأفكار الشريرة والمأساة قد اقتربت من حدود الكوميديا. آآه يا دكتور، أخبرك مرة أخرى أنّي كنت واهنًا».

جلس جون سايلنس مادًّا رأسَه للأمام كي يلتقط كلّ كلمة في القصّة التي استمرّ الآخر في سردِها بعبارات مهتزّة يشوبُها

الانفعالُ وبصوت خفيض.

سأل الطبيب: «ألم ترَ شيئًا، أو شخصًا طوال هذا الوقت؟».

أجاب: «ليس بعينيَّ. لم تكن هناك هلوسة مرئية ولكن بدأت صورة المرأة الواضحة تكبر في ذهني؛ امرأة ضخمة، سمراء، أسنانها بيضاء ذات ملامح ذكورية وعينها اليسرى مرتخية جدًا بدرجة تبدو وكأنّها مغلقة. آه، يا له من وجه!».

سأل الطبيب: «هل هو وجه يمكنك التعرّف عليه ثانية؟».

ضحك بيندر وهو مرتعبٌ وهمس: «ليتني أستطيع نسيانه. إنّي أتمنّى فقط أن أنساه». بعد ذلك، تقدّم بجسده للأمام على مقعده فجأة وأمسك بيد الطبيب بطريقة عاطفية ثم صاح بصوت مرتجف: «لا بدّ وأن أخبرك كم أنا ممتن لسعة صدرك وعطفك وأنك لم تعتقد أني مجنون. لم أخبر أحدًا بشيء عن هذا. إنّ حرية الحديث والراحة التي شعرت بها من مشاركة آخر في محنتي قد ساعداني بالفعل بدرجة أكبر ممّا أستطيع أن أقوله».

ضغط د. سايلنس على يده ونظر بثبات إلى العينين المرتعبتين. كان صوته رقيقًا جدًّا عندما أجاب وقال: «كما تعلم فإنّ حالتك فريدة جدًّا لكنّها مهمّة جدًّا بالنسبة لي،

لأنّها لا تهدئ من كيانك المادي فقط ولكن أيضًا من عالمك الداخلي. لن يتأثّر ذهنك على الدوام بهذا وذاك في هذا العالم؛ ولكن في الحياة بعد فناء الجسد قد تستيقظ وروحك ملتوية مشوّهة مدنّسة جدًّا حتّى إنّك تصبح مجنونًا روحيًا، وهي حالة متطرّفة بدرجة أكبر بكثير من كونك مختلَّ العقل».

ساد هناك سكون غريب في كلّ أنحاء الغرفة بين الرجلين الجالسين هناك وجهًا لوجه. تلعثم المؤلّف بمجرد أن استطاع الكلام وقال: «هل تقصد حقًّا... يا إلهي!».

قال د. سايلنس: «ما أقصده بالتفصيل سأحتفظ به، والآن أنا في حاجة إلى القول أنه لم يكن من الواجب عليَّ أن أتكلّم بهذه الطريقة إذا لم أكن متأكّدًا من قدراتي على مساعدتك. آه، صدّقني ما من شكّ في ذلك. في المقام الأول، أنا مُلمّ بالموادّ الفعّالة في هذا المخدر غير العادي، هذا المخدر الذي أتيحت له الفرصة كي يكشف لك قوى أخرى. في المقام الثاني، لدي إيمان قوي بحقيقة الظواهر الفائقة، وأيضًا معرفة كبيرة بالعمليات النفسية التي اكتسبتها عن طريق الاختبارات الطويلة المؤلمة. أمّا البقية فهي -أو يجب أن تكون- مجرد علاج وجداني وتطبيق عملي. لقد فتح الحشيش عالما آخر أمامك

بصورة جزئية بزيادة معدّل تذبذبك النفسي وهكذا فقط جعلك حسّاسًا بدرجة غير عادية. لقد هاجمتك القوى الغابرة المتصلة بهذا المنزل. في الوقت الحالي أنا متحيّر فقط فيما يتعلّق بطبيعتها المحدّدة لأنّها لو كانت ذات سمة عادية، لكان لزامًا أن أكون وسيطًا قادرًا على الشعور بها. لكنّي لا أشعر بشيء حتّى الآن. ولكن من فضلك الآن استمر يا سيد بيندر وأخبرني بما تبقّى من قصّتك العجيبة، وعندما تنتهي منها سوف أتحدّث عن وسائل العلاج».

حرك بيندر مقعده بالقرب من الطبيب الودود. بعد ذلك استمرّ في سرده للقصة بالصوت المنفعل نفسه: «بعد أن دوّنت بعض الملاحظات عن انطباعاتي صعدت أخيرًا الى الدور العلوي ومرة أخرى إلى فراشي. لقد كانت الساعة الرابعة صباحًا أثناء صعودي السلالم. ضحكت على درابزين السُّلّم غريب الشكل، وضحكت -أيضًا- على شكل كوّة بئر السلم المضحك وعلى الطريقة المضحكة التي تمّ بها تجميع الأثاث، وتذكّرت مسند الأقدام المعيب الموجود بالحجرة بالأسفل، ولكن لم يحدث ما يزعجني. استيقظت في وقت متأخّر من الصباح بعد نوم بلا أحلام دون حدوث شيء أسوأ بالنسبة لتجربتي، باستثناء صداع طفيف وشعوري ببرودة في

الأطراف نتيجة هبوط في الدورة الدموية».

سأله الطبيب: «هل اختفي الخوف أيضًا؟».

أجاب: «يبدو أنّني قد نسيته، أو نسبته إلى الحالة العصبية فقط، وعلى أيّ حال لقد اختفي في الوقت الحاضر فكتبت كثيرا طوال ذلك اليوم. كان يبدو أن شعوري بالضحك أصبح أسرع بدرجة عجيبة ووجدت نفسي أعمل دون جهد وبشعور فكاهي حقيقي. كنت سعيدًا جدًّا بنتيجة تجربتي. لكن عندما رحلت كاتبة الاختزال وبدأت في قراءة الصفحات التي قامت بكتابتها على الآلة الكاتبة، استرجعت نظرات الدهشة المفاجئة المرتسمة على وجهها والطريقة الغريبة التي كانت تنظر بها إليّ عندما كنت أملي عليها الكلام. دُهشت ممّا قرأته ولم أصدق قطّ أنّني قد نطقت به».

سأله الطبيب: «لماذا؟».

قال: «لقد كان مشوّهًا تمامًا. كانت الكلمات كلماتي بقدر ما أتذكّر ولكنّ المعاني بدت غريبة. لقد أرعبني ذلك الأمر. لقد تغيّر المعنى تمامًا في المواقف نفسها التي كان من المفترض أن تدغدغ فيها شخصياتي، وكانت النتيجة محض عواطف غريبة من اللهو الآثم. لقد تمكّنت بعض الإيماءات المخيفة من

التغلغل داخل العبارات. كان الضحك من النوع نفسه، لكنّه كان مرعبًا وغريبًا ومؤلمًا، أمّا محاولتي تحليل الأمر فلم تفعل شيئًا سوى أن زادت من رعبي. عندما قرأت القصة ارتجفت، لأنه بسبب هذه التغيّرات الطفيفة أصبحت تحمل روح الرعب المتخفّي وراء الفرح. كان الشكل العامّ للمرح موجودًا إن كنت تفهم مقصدي، ولكنّ الشخصيات أصبحت مصدرًا للشرّ وكان ضحكها شريرًا».

سأله الطيب: «هل تستطيع أن تريني إيّاها؟».

هزّ المؤلّف رأسه وهمس: «لقد تخلّصت منها، ولكن في النهاية، مع أنّي حائر جدًّا منها، إلا أنّي أقنعت نفسي أنّ ذلك من تأثير المخدر... نوع من ردّ الفعل الذي خدع عقلي وجعلني أرى تأويلات مخيفة في الكلمات والمواقف بصورة غير سليمة».

سأله الطبيب: «ولكن هل فارقك حضور هذا الكيان في الوقت نفسه؟».

أجاب: «لا، بل استمرّ ذلك نوعًا ما. كنت أنساه عندما أكون منشغلًا، ولكن عندما أكون كسولًا أو في حُلم أو لا أفعل شيئًا على وجه الخصوص أجدها بجانبى تؤثّر في عقلي بطريقة بشعة».

قاطعه الطبيب: «بأيّ طريقة بالتحديد؟».

قال: «بالشرّ. خطرت على بالي أفكار شريرة؛ مناظر جريمة، صور كريهة للشرّ ونوع من التخيّل السيّئ الذي كان بعيدًا جدًّا أو مستحيلًا حقًّا بالنسبة لطبيعتي العادية».

تمتم الطبيب بملحوظة سريعة: «ضغط قوى الظلام على الشخصية».

قال: «ماذا؟ لم أفهم قصدك».

قال الطبيب: «أرجوك استمرّ. إنّي أدوّن ملاحظتك فقط وفيما بعد ستعرف مغزاها تمامًا».

قال: «حتّى عندما عادت زوجتي كنت لا أزال واعيًا بهذا الحضور في المنزل. لقد ارتبط بشخصيتي الداخلية بطريقة ودودة جدًّا، وظاهريًّا كنت أشعر دائمًا أنّي مضطرّ بغرابة لأن أكون مؤدّبًا، وأن أُظهِر احترامي لهذا الحضور وأن أفتح الأبواب وأدّخر المقاعد وأتعامل معه باحترام عندما يكون قريبًا مني. أصبح ذلك الحضور مفروضًا عليَّ تمامًا، وإن فشلت في أيّ أمر صغير أظنّ أنّه يطاردني في كلّ أنحاء المنزل من حجرة للأخرى ويسكن في أعمق أعماق روحي. من المؤكّد

أنّه أتى -أيضًا- قبل زوجتي فيما يتعلق باهتماماتي وقتها. لكن اسمح لي أولا أن أنهي قصة الجرعة التجريبية لأنّي تناولتها مرة أخرى في الليلة الثالثة ومررت بتجربة مشابهة جدًّا. لقد تأخّر في الحضور مثل المرة الأولى وبعد ذلك أتى مصحوبًا بهذا الضحك الشيطاني الزائف، ومع ذلك، وفي هذه المرة، حدث عكس ما حدث من قبل بالنسبة لمعدّل الوقت والمسافة. لقد أصبح قصيرًا بدلًا من أن يصبح طويلًا ولذلك فقد ارتديت ثيابي ونزلت إلى الطابق السفلي في حوالي عشرين ثانية ومرّت الساعتان اللتان قضيتهما في حجرة المكتب وكأنّهما عشر دقائق».

قاطعه الطبيب فجأة وقال: «غالبًا ما يكون هذا حقيقي بالنسبة للجرعة الزائدة وقد تقطع ميلًا في دقائق قليلة أو تقطع ياردات قليلة في ربع ساعة. إنه أمرٌ غيرُ مفهوم تمامًا بالنسبة لأولئك الذين لم يختبروه قطّ، وهو دليلٌ غريبٌ على أنّ الوقت والمسافة هما مجرّد أشكال من الفكر».

واصل بيندر حديثه بطريقة أسرع فأسرع وقال: «هذه المرة اعتراني تأثير غير عادي. طرأ عليَّ تغيّر غريب في المشاعر، فقد شعرت بأشياء خارجية تمرّ من خلال قناة حسّية كبيرة أساسية

بدلًا من مرورها خلال التقسيمات الخمس المعروفة بالبصر والشمّ واللمس... وهلم جرا. أعلم أنك ستفهمني عندما أخبرك أنني سمعت مناظرَ ورأيت أصواتًا، ولا يمكن لأيّ لغة أن تجعل هذا مفهومًا؛ على سبيل المثال، أستطيع أن أقول فقط إني رأيت دقّات الساعة كصورة مرئية أمامي في الهواء. رأيت أصوات قرع الجرس، وبالطريقة نفسها تحديدًا سمعت الألوان في الحجرة وبخاصة ألوان تلك الكتب الموجودة في الرفّ الذي خلفك. لقد استمعت لأصوات تلك الأربطة الحمراء العميقة وأصوات الأغلفة الصفراء، أمّا الأربطة الفرنسية الصفراء فقد أحدثت صوتًا جادًّا نافذًا مثل ثرثرة طائر الخليش. أحدث دولاب الكتب بني اللون صوتًا خفيفًا، واستمرّت تلك الستائر الخضراء المقابلة له في إحداث صوت كخرير الماء، كأنّه نغمات، لكنّني كنت أشعر بهذه الأصوات فقط عندما كنت أنظر إلى الأشياء المختلفة وأفكّر فيها. وكما تعلم لم تكن الحجرة مليئة بالأغراض ولكنّني عندما كنت أركّز انتباهي على لون ما، كنت أسمعه وأيضًا أراه.

قال الطبيب: «ذلك تأثير معروف للحشيش، مع أنّه نادرًا ما يحدث. لقد أثار الضحك، أليس كذلك؟».

أجاب: «ما جعلني أضحك هو فقط ذلك الصوت المنخفض الناتج عن دولاب الكتب. لقد كان يشبه جدًّا صوت حيوان يحاول أن يلفت الأنظار إليه، وبدا لي كذُبّ يؤدّي حركات، مليءٍ بنوع من المرح المحرّك للعواطف كما تعلم. ولكن لم ينتج عن هذا الخلط في المشاعر أي ارتباك في ذهني، بل على العكس كنت صافي الذهن بطريقة غير عادية واختبرت قوة في وعيي، وشعرت أنّني على قيد الحياة وحاضر الذهن بدرجة عجيبة. إضافة إلى ذلك عندما أمسكت بقلم رصاص منساقًا لدافع واعٍ لرسم المشهد، مع أنّني ليست لديَّ هذه الموهبة، وجدت أنّني باستطاعتي أن أرسم رؤوسًا ولا شيء سوى ذلك حقًّا، ولكنّها كانت رأسًا واحدة ودائما الشيء نفسه. كانت رأس امرأة سمراء ملامحها كبيرة ومرعبة وكانت عينها اليسرى مرتخية جدًّا، فقمت برسمها بشكل جيد جدًّا حتّى إنّي دُهشت كما يمكنك أن تتخيّل».

سأله الطبيب: «ماذا عن تعبيرات الوجه؟».

تلعثم بيندر في الكلام لحظة وهو ينظر من حوله ويداه معلّقتان في الهواء بكتفين محدودبَين. شعر برجفة تسري في جسده وأجاب بصوت خفيض: «ما يمكنني وصفه فقط بأنه

سواد وجه روح مظلمة وشريرة».

سأله الطبيب بحدّة: «هل أتلفت الرسومات؟».

قال مبتسمًا: «لا؛ لقد احتفظت بالرسومات».

نهض كي يحضرها من درج في المكتب خلفه. قال وهو يضع عددًا من الأوراق أمام أعين الطبيب: «إليك ما تبقّى من الصور. كما ترى، لا شيء سوى خطوط قليلة لا معنى لها. هذا هو كل ما وجدته في الصباح اللاحق. في الحقيقة، أنا لم أرسم رأسًا على الإطلاق. لا شيء سوى تلك الخطوط والبقع والتموّجات. كانت الصور شخصية تمامًا، موجودة في عقلي الذي قام بتركيبها بالقلم من خطوط قليلة. لقد كان كلّ هذا وهمًا مثل معدّل المسافة والوقت. اختفي كلّ هذا مع اختفاء تأثيرات المخدر بالطبع، ولكن لم يختف الشيء الآخر أقصد أنّ حضور تلك النفس الكئيبة ظلّ، مع أنّه ما زال موجودًا هنا. لا أعرف كيف أهرب منه».

قال الطبيب: «إنه مرتبط بالمنزل وليس بك شخصيًا. عليك أن تغادر المنزل».

قال: «نعم، ولكن ليس بمقدوري أن أترك المنزل لأنّ عملي

هو وسيلة معيشتي الوحيدة، وكما ترى فأنا لا أستطيع الكتابة منذ هذا التغيير. إنّ القصص الحزينة التي أكتبها الآن مرعبة بما فيها من سخرية وإيعاز جهنميّ. يا لَها من مرعبة! سوف أصبح مجنونًا إذا استمرّ هذا الأمر». انكمشت عضلات وجهه ونظر حول الحجرة كما لو أنه يتوقّع أن يرى ما يلاحقه.

تابع: «إنّ هذا التأثير في هذا المنزل الذي تسبّبت فيه تجربتي قد قتل جذور مرحي بضربة مفاجأة، في ومضة عين، ومع أنّي ما زلت مستمرًا في كتابة القصص الهزلية، فقد جفّ إلهامى مع أن اسمى معروف، وعليَّ أن أقوم بحرق الكثير ممّا أكتبه. نعم أقوم بحرقه قبل أن يراه أحد».

سأل الطبيب: «هل لأنّه غريب تمامًا عن ذهنك وشخصيتك؟».

قال: «تمامًا؛ كما لو أنّ شخصًا ما آخر قد كتبه...».

قال الطبيب: «آه».

قال بيندر: «وصادم!» ثم مرَّر يديه فوق عينيه لحظة وسمح لتنفّسه أن يخرج بنعومة عبر أسنانه مع ذلك.

نهض جون سايلنس وبدأ يتجوّل في الحجرة على مَهَل

دون أن يتكلّم. كان يبدو أنّه يفحص الصور الموجودة على الحائط ويقرأ أسماء الكتب المتبعثرة. في الحال، توقّف قليلًا عند المدفأة معطيًا ظهره للنار واستدار لينظر في عيني مريضه بهدوء. كان وجه بيندر رماديًّا وقد سيطرت عليه تعبيرات شخص مسكون بكيان ما وقد أثرت فيه القصّة الطويلة.

قال واحمرار غريبٌ يبدو على وجهه الهادئ الناعم: «شكرًا يا سيّد بيندر على صدقك وصراحة تقريرك لكنّي أعتقد الآن أنّه ليس هناك شيءٌ آخر أحتاج لسؤالك عنه». ثم انغمس طويلًا في فحص ملامح المؤلّف الشاحبة محدّقًا في عينيه ناظر إليهما بقوة وثقة تستطيعان أن تبعثا الشجاعة حتّى في أضعف نفس. أضاف مبتسمًا ابتسامة لطيفة: «اسمح لي أن أؤكّد لك دون تأخير أنك لست في حاجة إلى أن تنزعج لأنّك لست مخبولًا أو مضلّلا بدرجة أكبر منّي».

تنهّد بيندر بعمق وحاول أن يعيد الابتسامة لوجهه.

فأضاف الطبيب: «أستطيع الآنَ أن أحكم أن هذه فقط حالة اجتياح نفسي فريدة وسيّئة جدًّا، لو كان بإمكانك أن تفهم ما أقصده...».

«إنّه تعبير غريب استعملته أنت من قبل». قال المؤلّف

ذلك بضجرٍ مع أنّه كان متشوقًا للاستماع إلى كلّ كلمة تخصّ التشخيص، وكان متأثّرًا بشدّة بالعطف الذي لم يشر من فوره إلى مستشفي الأمراض العقلية.

قال الطبيب: «من الممكن ذلك، ومن الممكن القول بأنّه كربٌ غريبٌ -أيضًا- لم يكن معروفًا لدى القدماء، وربّما لا يعرفه المعاصرون الذين يفهمون حرية الفعل تحت ظروف فرضية معيّنة بين هذا العالم وعالم آخر».

سأله بيندر بسرعة: «هل تعتقد أنّ هذا يرجع أساسًا إلى الحشيش، وأن ليس هناك شيءٌ بي؛ شيء لا شفاء منه له أو...؟».

أجاب د. سايلنس مؤكّدًا: «إنّه يرجع أساسًا إلى الإفراط في الجرعة، إلى تأثير الدواء المباشر على كيانك النفسي. لقد جعلتك في هذه الحالة حسّاسًا جدًّا وجعلتك تستجيب لمعدّل اهتزاز متزايد. اسمح لي أنّ أقول لك يا سيّد بيندر إنّ تجربتك قد تكون لها نتائجُ مرعبة جدًّا، ولقد جعلتك على اتصال بنوع فريد ممّا هو غير مرئيّ إلى حدّ ما، ولكن بنوع واحد، وأظن أنّه بشري في سمته بدرجة أساسية. على أيّ حال ربّما تكون قد انتُزعتَ من النوع البشرى تمامًا وبسهولة، وربّما كانت نتائج

مثل هذا الاحتمال مرعبة جدًّا. في الحقيقة لو حدث ذلك لما كان في إمكانك أن تكون هنا لتحكيَ قصّتك. أنا لستُ في حاجة إلى أن أنذرَك بهذا الخطر، ولكن أذكره بمثابة تحذير لن تسيء فهمه أو تستخفّ بما إنك اختبرته. تبدو متحيّرًا وربّما لا تستنتج تمامًا ما أقصده، وليس من المتوقّع أنّك يجب أن تستنتجه لأنّي أفترض أنك مسيحيٌّ عادي فقط، ولديك أخلاق المسيحي السامية، ولأنّ فهمَك لشرّ الأمور الروحية في الأماكن السامية لا يتجاوز فهم الطفل، فمن المحتمل أنّك ليس لديك فهم لما هو ممكن عندما تنهدم الهُوّة الضعيفة المثبتة بينك وبين العالم الخارجي، لكنّ دراساتي وتدريبي أخذاني إلى ما هو أبعد من هذه الطرق التقليدية، وقد قمت بعمل التجارب التي لا أستطيع التحدّث معك عنها بلغة واضحة».

توقّف لحظة ليلاحظ اهتمام بيندر الشديد الواضح على وجهه ومن أسلوبه. كان لكلّ كلمة ينطق بها حساب. لقد عرف تمامًا قيمة وتأثير العواطف التي كان يرغب في إيقاظها في قلب الإنسان المغموم الواقف أمامه. استمرّ الطبيب في حديثه بهدوء وقال: «عن طريق معرفة معيّنة اكتسبتها أثناء خبرات متنوّعة أستطيع أن أشخّص حالتك على أنّها اجتياح نفسي كما قلت من قبل».

تلعثم كاتب القصص الفكاهية المرتبك وسأل: وما طبيعةُ هذا الـ... الاجتياح؟».

أجاب د. سايلنس: «ليس هناك سبب يوضّح لماذا، ولا يجب عليّ أن أقول في الحال أنّي لا أعلم تمامًا حتّى الآن. قد يكون عليَّ أولًا أن أقوم بتجربة أو اثنتين...».

«عليَّ؟» شهق بيندر كاتمًا أنفاسَه.

قال الطبيب بابتسامة رصينة: «ليس بالتحديد ولكن ربّما بمساعدتك. سأحتاج إلى أن أفحص أحوال المنزل كي أتأكّدَ من سمة قوى هذه الشخصية الغريبة المسيطرة عليك...».

قال الآخر باهتمام رهيب مميت ودهشة شديدة: «في الوقت الحاضر ليس لديك فكرة تحديدًا عمّن... ماذا؟ لماذا؟...».

قال الطبيب: «لديَّ فكرة جيّدة جدًّا، ولكن ليس هناك دليلٌ على أنّ تأثيراتِ الدماء في تغيير معدّل الوقت والمسافة واندماج المشاعر ليس لها علاقة بالاجتياح في الأصل. إنّها تأتى لأيّ شخص أحمق بدرجة تكفي أن يتناول جرعة تجريبية. أمّا الصفات الأخرى لحالتك هي غير العادية. كما ترى فأنت الآن على اتصال بعواطف ورغبات وأهداف معيّنة عنيفة ما

زالت نشطة في هذا المنزل التي أنتجتها في الماضي شخصية ما قوية وشريرة كانت تعيش هنا. لا أستطيع القول حتمًا منذ متى أو لماذا ما زالت مستمرة بقوة، لكن يجب أن أحكم أنّها مجرد قوى تعمل آليًا بعزم قوة دفعها المرعبة الأصلية».

سأل بيندر: «هل تقصد أنّها غير منقادة من قبل كائن حيّ أو إرادة واعية؟».

أجاب الطبيب: «ربّما لا، ولكن مع هذا فهي خطيرة ومن الصعب جدًّا التعامل معها. لا أستطيع أن أشرح لك في دقائق قليلة طبيعية مثل هذه الأشياء لأنّك لم تقم بالدراسات التي تمكّنك من أن تتبعني، ولكن لدي سببًا في الاعتقاد بأنّه عندما يتحلّل جسم إنسان ميت فإنّ قواه قد تستمرّ في عملها بطريقة عمياء غير واعية. وكقاعدة فإنّها تتشتت بسرعة، ولكن في حال الشخصية القوية جدًّا فقد تستمرّ مدة طويلة، وفي بعض الحالات التي أظن أنّ هذه إحداها، فإنّ هذه القوى قد تتلاقى بكيانات معيّنة ليست بشرية فتواصل حياتها إلى أجل غير مسمى وتزداد في قوتها لدرجة لا يمكن أن تصدّقها. إذا كانت الشخصية الأصلية شريرة فإنّ الكائنات التي تنجذب إلى القوى المتبقّية منها ستكون شريرة هي الأخرى. لذا، هناك

كمّية ضخمة ومخيفة وغير عادية من الأفكار والأهداف تركت منذ مدة طويلة عن طريق امرأة شريرة تمامًا وعن طريق قوة عظيمة من الشخصية والعقل. والآن هل بدأت تفهم ما أقصده ولو قليلًا؟».

حملق بيندر في رفيقة وبدا الرعب واضحًا في عينيه، لكنّه لم يجد ما يقوله فاستمرّ الطبيب: «في حالتك المهيّأة سلفًا بفعل المخدر، فإنّك قد اختبرت اقتحام هذه القوى الشديدة. إنّها تمحو تمامًا شعورك بالمرح والخيال والنزوة وكلّ ما يتّجه نحو البهجة والأمل. إنّها تسعى إلى إزاحة أفكارك الخاصّة بك واستبدالها بأفكارها الخاصّة. إنّك ضحية اجتياح نفسي، وفي الوقت نفسه أصبحت أنت نفسك تمثّل قوة الأشياء غير المنظورة».

مسح بيندر وجهه وتنهّد. ترك مقعدَه واتّجه إلى مكان المدفأة حتّى يشعرَ بالدفء.

ضحك د. سايلنس وقال: «قد تظنّ أنّي دجّال أو مخبول لأنّي أتحدّث بمثل هذه الطريقة، لكن لا تبال بذلك. لقد أتيت لمساعدتك وأستطيع أن أساعدك عندما تفعل ما أخبرك به. إنّه أمرٌ سهل جدًّا: عليك أن تغادر هذا المنزل في الحال. لا تبال

بالصعوبات. سوف نتعامل معها معًا. في استطاعتي أن أوفِّر لك منزلًا آخر. إنّي مهتمّ جدًّا بحالتك وأنوي أن أشرح الأمر لك كي لا تشعر بالقلق وتتمكّن من العودة لمسار عملك غدًا! لقد أمدّنا المخدر معًا بطريق مختصر لخبرة مفيدة. إنّي ممتن لك».

حرّك المؤلّف النار بقوة وازدادت عاطفته مثل حركة المدّ والجزر. نظر ناحية الباب بقلق.

قال الطبيب بسرعة: «ليس هناك داع لأن تزعج زوجتك أو تخبرها بتفاصيل حوارنا. دعها تعرف أنّ صحتك وشعورك بالمرح سوف يعودان لك سريعًا. وضح لها أنّي سأعيرك منزلًا آخرَ مدة ستة أشهر، وفي الوقت ذاته قد أستعمل هذا المنزل لليلة أو اثنتين من أجل تجربتي هل ذلك مفهوم بالنسبة لنا؟».

تلعثم بيندر ولم يستطع أن يجد كلمات تعبّر عن عرفانه بالجميل وقال: «لا أستطيع إلا أن أشكرك من أعماق قلبي». بعد ذلك تردّد لحظة وهو يفحص وجه الطبيب بقلق وأخيرًا قال: «ماذا عن تجربتك بالنسبة للمنزل؟».

قال الطبيب: «سأقوم بها. مع أنّي مدرّب على ما يختصّ بالنفس وبناء على ذلك أدرك وجود كيانات غير مادية كقاعدة،

لكنّي أشعر بشيء هنا مطلق حتّى الآن، وهذا يجعلنى متأكّد أن القوى التي تعمل هنا من نوع غير عادي. ما أقترح فعله هو القيام بتجربة، بقصد أن أُخرِج هذا الشرّ من عرينه وأداعبه كي يتكلّم حتّى ينهكَ نفسَه من خلالي ويصبح مشتّتًا للأبد. إنّي بالفعل أعد نفسي محصّنًا ضدّ تأثيره».

شهق الكاتب منهارًا على مقعده وقال: «يا رب السماوات!».

ضحك الطبيب وقال: «الجحيم بالأسفل! قد يكون هتافًا مناسبًا بدرجة أكبر، ولكن يا سيد بيندر، هذا هو ما أقترح فعله بجدّية بعد إذنك».

صرخ المؤلّف: «بالطبع، بالطبع... أسمح لك بذلك مع أطيب أمنيّاتي لك بالنجاح. لا أرى أيَّ اعتراض على ذلك ولكّن...».

سأل الطبيب: «ولكن ماذا؟».

قال بيندر: «أرجو ألا تقوم وحدَك بهذه التجربة. هل ستكون بمفردِك؟».

أجاب الطبيب: «آه، يا عزيزي، لا؛ لن أكون بمفردي».

قال: «سيكون لديك رفيق قويّ الأعصاب يمكن الاعتمادُ عليه في حالة وجود أزمة، أليس كذلك؟».

رد: «سوف أحضر رفيقَين».

قال المؤلّف: «آه، هذا أفضل. أشعر أنّني أكثر راحة. إني متأكّد أنّك لا بدّ وأنّ لديك رجالًا بين معارفك سيـ...».

قال الطبيب: «لن أفكّر في إحضار رجال يا سيّد بيندر...».

نظر الآخر بحدّة فأضاف الطبيب: «ولا نساء أو أطفال أيضًا».

قال المؤلّف: «أنا لا أفهم. إذن، من الذين ستحضرهم معك؟».

أجاب الطبيب وهو غيرُ قادرٍ على منع ابتسامته عندما رأى رفيقهُ مدهوشًا: «حيوانان؛ قطّة وكلب».

حملق بيندر كما لو أنّ عينَيه ستسقطان على الأرض. بعد ذلك ومن دون كلمة أخرى شقّ طريقه إلى الحجرة المجاورة حيث كانت زوجته في انتظارهما ليشربا الشاي.



بعد أيام قليلة انتقل الكاتب الساخر وزوجته، وقد استراح بالهما، إلى منزل صغير مؤثّث في جزء آخر من لندن، وكان تحت أمرهما. أمّا جون سايلنس الذي عزم على أداء تجربته فقد استعدّ لقضاء ليلة في المنزل الفارغ الموجود على قمّة بونتي هل. تمّ تجهيز حجرتين فقط للعمل: حجرة المكتب في الطابق الأرضي وحجرة النوم التي تقع فوقها مباشرة، أمّا كلّ الأبواب الأخرى فكانت مغلقة ولم يسمح لأيّ خادم أن يوجد في المنزل. أعطى تعليمات لسكرتيره كي يفتّش عن التاريخ الماضي للمكان والمرتبطين به، وأن يعرف كلّ شيء بقدر استطاعته عن صفات من كانوا يشغلونه؛ القريبين أو البعيدين.

اختار د. سايلنس الحيوانات بعناية وتميّز لأنّه عزم على اختبار أيّ حالات غير عادية في المكان المحيط بالمبنى عن طريق إحساسي الحيوانين. اعتقد -وبالفعل قام بتجارب غريبة لإثبات هذا- أنّ الحيوانات في الغالب، وفي الحقيقة، ترى الأشياء غير المنظورة بدرجة أكبر من البشر. كان مقتنعًا أنّ الكثير منها لديها قدرات على الإدراك أسمى بكثير من مجرّد حدّة الحواسّ الشائعة بين كلّ سكّان البراري، حيث تصبح

الحواسّ نشطة بوجه خاصّ. كان لديهم ما أسماه «استبصار الحيوانات»، وانطلاقا من تجاربه على الخيول والكلاب والقطط وحتّى الطيور، كان قد استخلص بعض الاستدلالات التي ليس في حاجة لأن يشير إليها هنا بالتفصيل .

لقد اعتقد أنّ القطط على وجه الخصوص تدرك مجالًا من الرؤية أكبر باستمرار وتفصيل شديد حتى بالنسبة للكاميرا الفوتوغرافية وبعيد تماما عن متناول البشر. لقد لاحظ -أيضًا- أنّه بينما كانت الكلاب عادة مرتعبة في حضور مثل هذه الظواهر، فعلى العكس من ذلك كانت القطط هادئة وراضية. لقد كانت ترحّب بالتجلّيات وكأنّها شيئًا ما ينتمي إليها. لذلك اختار الحيوانات بحكمة ليقدّم كلّ واحد منها اختيارًا مختلفًا، كلّ بطريقته الخاصة، ولذلك ينبغي للمرء ألّا ينقل إثارة ذلك الحيوان لحيوان آخر. لقد أخذ كلبًا وقطًا. إنّ القطّ الذي أصبح كبيرًا تمامًا الآن قد عاش معه منذ أن كان صغيرًا جدًّا. لطافته محيرة وأداؤه جريء. كان عنيدًا وغريب الأطوار يلعب ألعابه الغامضة في أركان الغرفة، ويقفز على الأشياء غير المنظورة ويقفز عرضًا في الهواء ويسقط بأقدام على جزء آخرَ من السجادة في جوّ مليء بالحماسة الكبيرة الذي كان يوضح أنّ ذلك الأداء كان ضروريًّا لوجوده، وليس فقط ليؤثر في جمهور

أحمق. في منتصف عملية لعقه لجسده المتقنة كان يبدو مستغربًا كما لو أنّه يحملق في شيء ما غير مرئي على مقربة منه، ويداعب رأسه الصغيرة عرضًا، ويتوسد وسادة مخملية كي يراقب بحَذَرٍ. بعد ذلك يصبح شارد الذهن ويحملق في اتجاه آخر عمدًا كي يربك من يشاهده، وفجأة يستمرّ في لعق جسده مرة أخرى ولكن في مكان جديد تمامًا. لقد كان أسود كالفحم باستثناء مساحة بيضاء صغيرة على صدره. كان اسمه «دخان».

يمكن وصف «دخان» من ناحية مزاجه وأيضًا مظهره. إنّ حركاته وتميُّز شخصيّته ووضعيته ومراوغته كلها محلّ لألغاز كثيرة، جميعها يمكن أن تعطي تسويغًا لاسمه، وربّما كان في مقدور رسّام عبقريّ أن يصوّره ككتلة من الدخان العائم، أمّا النار فيه فلا تكشف عن نفسها إلّا في نقطتين؛ العينين المتوهّجتين. كشفت كلّ قواه عن ذكاء غامض، وبصيرة القطّ الثاقبة. لقد كان مناسبًا حقّا للمهمّة الحالية.

أمّا بالنسبة لاختيار الكلب فلم يكن بالأمر السهل؛ لأنّ الطبيبَ كان لديه الكثير، ولكن بعد كثير من التردّد اختار كلبًا اسكتلنديًّا يُدعى «لهب» نسبة إلى فروته الصفراء. لقد كان

عجوزا ذا مفاصل متصلّبة وحتّى سمعه بدأ يضعف، ولكن من الناحية الأخرى فقد كان صديقًا خاصًّا للقطّ، وتبنّاه منذ أن كان صغيرًا جدًّا ولذلك كان هناك تفاهمٌ كبيرٌ بينهما. لقد كان ذلك في صالحة بالإضافة إلى شجاعته. إضافة إلى ذلك لقد كان محاربًا مرعبًا مع أنّه كان لطيف الطبع، وكان غضبه مثل النار المستعرة التي لا تقاوم عندما يثور لسبب حقيقي.

لقد أتى إليه من راعي الغنم مباشرة وهو في سنّ صغيرة جدًّا، تفوح رائحة التلال من فتحتي آنفه، لذا فقد كان أكثر من مجرّد جلد وعظام وأسنان. ولمّا كان كلبًا اسكتلنديًّا، فقد كان قوي البنية وكانت أنفه فظّة بدرجة أكبر من معظم الكلاب الأخرى، وكان شعره الأصفر خشنًا أكثر من كونه ناعمًا، وعيناه كانتا مكتملتين بعكس عيون سلالته الضيّقة. لا يستطيع أحد أن يلمسه أو يربت عليه سوى صاحبه. كان هناك شيءٌ أصيلٌ بالنسبة لذلك الحيوان العجوز، لقد كان جادًّا، وعاش حياته بنشاط كبير واضعًا في حسبانه أمور ذات أهمّية كبيرة. كما أنّه كان مشهورًا بمساندة كلّ جنسه. عندما نراقبه وهو يقاوم كلّ ما هو شاذّ نفهم لماذا كان مرعبًا.

أمّا عن علاقته بالقطّ «دخان» فقد كان دائمًا مهذّبًا بدرجة

غير معقولة؛ وكان أيضًا رؤوفًا، وفي الوقت نفسه كان يكشف عن حياء أو خجل معيّن. لقد عرف أنّ «دخان» يطالب بقيادة قوية. لقد حيَّرته طرق القطّ الملتوية، وربّما كانت تظاهراته المتقنة صادقة للكلب الذي كان يحب التصرّف المباشر غير المقنع، ومع ذلك، عندما كان يفشل في فهم تلك الأسرار الغامضة الملتوية الماكرة، لم يكن قطّ يبدي أيّ ازدراء أو تنازل؛ لكنّه اهتمّ بسلامة صديقه المغطّى بالفرو الأسود كأب محبّ قد يرى تخيّلات طفله العنيد الموهوب، ويقوم بتوجيهها، وفي المقابل كافأه «دخان» بعروض مؤذية لكنّها كانت مبهرة وجريئة. إنّ هذه الأوصاف المختصرة ضرورية لنفهم فهمًا صحيحًا ما حدث بعد ذلك.

في الخامس عشر من نوفمبر، بعد العشاء، استقلّ جون سايلنس سيّارته ومعه دخان الذي كان نائمًا في أحضان فروته، والكلب الاسكتلندي الذي كان مستلقيًا على المقعد المقابل وكان متيقّظًا. كان الضباب كثيفًا جدًّا حتّى إنّهم كانوا مضطرّين للسفر طوال الطريق بربع السرعة المقرّرة.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما ترك سايلنس سيّارته ودخل المنزل الصغير القذر عن طريق المفتاح الذي

أعطاه بيندر إيّاه. وجد النور خافتًا في الصالة والنار مشتعلة بروية في المدفأة بحجرة المكتب. قام الخادم بتجهيز الكتب والطعام طبقًا للتعليمات. اندفع من خلفه عبر الباب المفتوح ضباب كثيف ملأ الردهة والممر ببرودته غير المريحة. كان أول ما فعله د. سايلنس هو أنّ حبس دخان في غرفة المكتب واضعًا طبقًا من اللبن أمام المدفأة. بعد ذلك فحص المنزل ومعه لهب. كان الكلب يجرى فرحًا خلفه بينما كان يتأكّد من أنّ أبواب الحجرات الأخرى كانت مغلقة. كان يتشمّم الأركان ويقوم بجولات قصيرة داخل المنزل بمفرده. كانت الطريقة المتوقّعة. لقد عرف أنّه لا بدَّ من وجود شيء ما غير عادي، فلم يكن من المعتاد قطّ، طوال حياته، ألا يكون نائمًا على السجّادة أمام المدفأة في هذه الساعة. ظلّ يتطلّع في وجه سيّده بعد مرورهم بابا تلو الآخر بتعبير يشي بالذكاء المتعاطف، ولكن في الوقت نفسه كانت هناك عدم موافقة معيّنة ومع ذلك استحسن كلّ شيء فعله سيّده، وكشف عن قليل من عدم الصبر كلّما أمكنه ذلك بسبب هذا التجوال غير الضروري هنا وهناك. لو كان يسرّ الطبيب بلعب هذا النوع من الألعاب في مثل هذه الساعة من الليل، فمن المؤكّد أنّه لم يكن لديه الحقّ في أن يعترض على ذلك. لعب وانشغل إذن بالأمر وأبدى حماسته.

بعد بحث ذهبا الى حجرة المكتب مرة أخرى، وهناك وجد د. سايلنس دخان وهو يلعق وجهه بهدوء أمام المدفأة.

كان طبق اللبن جافًا ونظيفًا بعد أن لعق دخان اللبن. إنّ الفحص المبدئي الذي دائمًا ما تقوم به القطط في الأماكن المحيطة الجديدة تكون لها نتائج مرضية. وضع د. سايلنس مقعدًا بالقرب من النار وحرَّك قطع الفحم لتتوهّج، وأعدَّ المنضدة والمصباح ليقرأ، وبعد ذلك أعدّ نفسَه لمراقبة الحيوانين. أراد أن يلاحظهما بعناية دون أن يشعرا به.

والآن، مع أنهما بلغا مرحلة معيّنة من العمر، كان الحيوانان معتادَين على اللعب معًا كلّ ليلة قبل النوم. دائمًا ما كان دخان يبدأ اللعب بأن يربت على ذيل الكلب بطريقة سخيفة، أمّا لهب فكان يتلطّف ويلعب معه بخراقة. كان يشعر أنّ من واجبه أن يفعل ذلك بالإضافة إلى ما يبعثه ذلك فيه من سرور. كان يسعد عندما ينتهي اللعب، وكان أحيانًا يعقد النيّة على رفض اللعب تمامًا. كانت هذه الليلة واحدة من المرات التي كان فيها حازمًا.

كان الطبيب ينظر بحذر من أعلى كتابه وهو يراقب القطّ وهو يبدأ العرض. بدأ محدّقًا في الكلب بطريقة بريئة حيث كان الكلب راقدًا في منتصف أرضية الحجرة وأنفه بين براثنه. ثم

نهض القطّ وتظاهر أنّه ينوي الذهاب إلى الباب بهدوء. كانت عينا لهب تتبعاه حتى ابتعد عن بصره، ثم التفت القطّ بحدّة وبدأ يربت على ذيله بمخلب واحد ليرى تأثير ذلك. تحرّك الذيل بدرجة طفيفة، فغيَّر دخان مخالبه وربت عليه مرة أخرى. مع ذلك لم ينهض الكلب للعب كما كانت عادته فبدأ القطّ يضغط بمخلبَيه بنشاط ولكن لهب ظلّ راقدًا دون حركة.

حار القطّ في ذلك وجعله يشعر بالملل فاستدار وحملق بشدة في وجه صديقه كي يرى ما الأمر. ربّما أنّ رسالة غير واضحة قد برقت من عيني الكلب إلى عقله الصغير جعلته يفهم أن من الأفضل ألا يبدأ برنامج تللك الليلة باللعب. ربّما أدرك فقط أنّ صديقه كان بلا حركة لكن مهما كان السبب، فقد تخلّى عن إلحاحه الشديد واستلم دخان لمزاج الكلب في الحال وجلس في مكانه وبدأ يغتسل.

لكنّ الطبيب لاحظ أنّ الاغتسالَ لم يكن هو هدف القطّ بأيّ حالٍ من الأحوال، بل استخدمه ليخفي شيئًا. لقد توقّف في أكثر اللحظات انشغالاً وبدأ يحملق في الحجرة من حوله. لقد تاهت أفكاره بدرجة غير معقولة. نظر عن قرب وعمدًا إلى الستائر في أوضاع غريبة جدًا مدة دقائق. بعد ذلك استدار بحدّة

وحملق في الكلب بطريقة مفاجئة تدلّ على الذكاء، وفجأة نهض لهب وأخذ يتجوّل بلا هدف في الحجرة وبقلق. تبعه دخان بهدوء، كان يبدو أنّهما يفحصان الحجرة بتروّ.

عندما كان الطبيب يراقبهما ملاحظًا بعناية كلَّ تفاصيل أدائهما من أعلى كتابه دون أن يتدخّل في شيء، بدا له أنّ البدايات الأولى لخطر صغير كشفت عن نفسها للكلب الاسكتلندي والقطّ في صورة إثارة غامضة.

لاحظهما من كثب. كان الضباب كثيفًا في الهواء وقد أضاف الدخان الخارج من غليونه إلى كثافته، ولم يكن الأثاث الموجود في الطرف البعيد واضحًا حيثما تجمّعت الظلال في سحب معلّقة أسفل السقف. كان من الصعب أن يرى أيّ شيء بوضوح، ولم يتجاوز مدى ضوء المصباح خمسة أقدام من أرضية الحجرة، ومن أعلى كانت هناك طبقات من الظلام، ونتيجة لذلك بدت الغرفة أكثر ارتفاعًا من حقيقتها. لاحت السجادة بوضوح في ضوء المصباح والمدفأة.

قام الحيوانان بجولتهما الصامتة في الحجرة. أحيانًا ما يكون الكلب هو القائد وأحيانًا القطّ. من حين لآخر كانا ينظر بعضهما إلى بعض كما لو أنّهما يتبادلان الإشارات، مع أن

المساحة محدودة، إلّا أن الطبيب لم يستطع أن يرى أحدهما بين الضباب والظلال مرة أو مرتين. كان يبدو له أنّ فضولهما أكثر من مجرد إثارة كامنة سببها أرض الغرفة المجهولة، ومع ذلك كان من المستحيل اختبار ذلك، لذا عمل الطبيب على أن يجعل عقله مستعدًّا لتلقّي أدنى إثارة عقلية ممكنة تصل إلى الحيوانَين، وبذلك يقضي على سلوكهما المستقلّ.

لقد قاما بعملية فحص دقيقة جدًّا ولم يتركا أيَّ قطعه من الأثاث دون فحص أو شمّ. قاد لهب المسيرة، وكان يمشي خافضًا رأسه، وتبعه دخان سائرًا على أطراف قدميه متظاهرًا أنّه غير مهتمّ تمامًا ومع ذلك لم يغب عنه شيء، وأخيرًا عادا واستراحا على السجّادة أمام المدفأة. اراح لهب خطمه على ركبة سيده الذي شرع يربت على رأسه الصفراء مُردّدًا اسمه، أمّا دخان الذي أتى متأخّرًا قليلا متظاهرًا أنه أتى مصادفة، فقد رأى وجهه في الطبق الفارغ ثم لعق اللبن حتّى آخر قطرة وبعد ذلك وثب على ركبتيه للنوم الذي استحقّه تمامًا وأراد أن يتمتّع به.

ساد الصمت في الغرفة، ولم يخرق ذلك الصمت العميق سوى تنفّس الكلب الموجود على السجّادة، وبدا كدقّات الزمن التي تعلن مرور الدقائق، بينما أظهرت القطرات المتساقطة

على حوافّ النافذة وحشيَّة الليل البهيم بالخارج. وتناقصت أصوات تداعي قطع الفحم عندما استقرّت النار في الموقد وقلت حدّة ألسنة اللهب.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة وكان كلّ شيء على ما يرام. عاد د. سايلنس لكتابه مرة أخرى. قام بقراءة الكلمات الموجودة في الصفحة وألم بمعناها إلمامًا سريعًا، دون أن يربط بين العَلاقات المختلفة بين التفكير والإيحاءات التي تصاحب القراءة الممتعة.

طوال الوقت كانت قدراته العقلية منهمكة في مراقبة وسماع وانتظار ما قد يحدث. لم يكن متحمّسًا بدرجة أكبر من اللازم، ومع ذلك لم يرغب في أن يؤخذ على حين غرّة. إضافة إلى ذلك فقد نامت الحيوانات التي كانت بمنزلة مجسّاته الحسّاسة.

بعد أن قرأ اثنتي عشرة صفحة أدرك أنّ عقله كان مشغولًا حقًّا في مراجعة قصّة بيندر غير العادية، ولم يعد من الضروري أن يُثبِّت خياله على دراسة أجزاء الكتيب المشروحة بالتفصيل في الصفحات التي أمامه. بناء على ذلك ترك كتابه وسمح لأفكاره أن تتركز على الحالة محلّ الدراسة. مع ذلك، فقد قمع

تأمّلاته بعنف فيما يخصّ المعنى مدركًا أنّ مثل هذه الأفكار ستؤثّر في حالته تأثير الريح في حجرات النار المتوهّجة.

عندما انقشعت الظلمة تدريجيًا ازداد الصمت عمقًا أكثر فأكثر. في أوقات متباعدة كان يتناهى إلى آذانه صوت العربات في الطريق الرئيس على بعد مئة ياردة، حيث كانت الخيول تسير ببطء شديد بسبب كثافة الضباب. لم يعد صدى خطوات أقدام المشاة يصل إليه، ولم تعد ضجّة الأصوات تصل إلى الشارع الجانبي. إنّ الظلمة المغطّاة بالضباب التي يحجبها سرٌّ غامض كانت تتسكّع بلا هدف في الفيلا المسكونة بالأرواح كالقدر، ولم يكن شيء آخر يتحرّك في المنزل. خيَّم الصمت العميق على الطوابق العليا. ظن الطبيب أنّ الضباب أكثر كثافة في الحجرة وازدادت حدّة البرودة. من المؤكّد أنّه كان يرتعش من وقت لآخر.

كان الكلب الاسكتلندي النائم بعمق الآن يتحرك، وأحيانًا ما كان يصدر صوتًا بطيئًا خشنًا، ويتنهّد أو ينتفض كأنّه في حُلم. استلقى دخان على ركبتَيه متدفّئًا بشعره الكثيف، ولم يكن بإمكان أحد سوى من يراقبه من كثب أن يلاحظ حركة جانبَيه الأملسَين. لقد كان من الصعب أن نميزَ بالتحديد موضع التحام

الرأس بالجسد وسط كلّ هذا الشعر اللامع. لم يفشِ سرّه إلا أنفه الأسود اللامع وطرف صغير جدًّا من لسانه الأحمر.

راقبه د. سايلنس وشعر بالراحة. كان تنفّس الكلب هادئًا وكانت نار المدفأة شديدة ومن الممكن أن تستمر في الاشتعال ساعتين أخريين دون تدخل أحد. لم يكن يشعر بأدنى اضطراب. لقد تمنّى على وجه الخصوص أن يظلّ في حالته العقلية الطبيعية، ولا أن يفرض على نفسه شيئًا، وإن هجم عليه النوم، فسيسمح له، بل سيرحب به. من المؤكد أن البرودة الناتجة عن خمود النار ستوقظه، وإن حصل، فسيكون الوقت كافيًا للذهاب إلى السرير. كانت افتراضاته تُؤكد أن الليل لن يمر دون مغامرة، لذا لم يرغب أن يستعجلها. أراد أن يكون في حالة طبيعية، ولهب ودخان كذلك، كي يعيروا تلك الأحداث الغريبة كل انتباه عندما تأتي. جعلته التجارب الكثيرة حكيمًا، لا يخشى شيئًا.

بناء على هذا، وبعد وقت نام كما توقّع، وكان آخر شيء تذكّره قبل أن يغطّيَ النسيان عينيه مثل الصوف هو منظر لهب وهو يمدّدُ سيقانه الأربع سريعًا، ويتنهّد بصوتٍ عالٍ عندما يسعى إلى وضع مريح لبراثنه وفمه على السجادة.

لقد كان من الجيد أن أدرك فيما بعد أن هناك ثقلًا ما على صدره، وأنّ شيئًا ما كان يداعب وجهه وفمه. أيقظته لمسة خفيفة على وجنته. شيء ما كان يربّت عليه.

نهض بعنف ووجد نفسه يحملق مباشرة في عينين لامعتين لونهما ما بين الأخضر والأسود. وجد وجه دخان على مستوى وجهه وقد صعد القط على صدره بمخالبه الأمامية وأصبح ضوء المصباح خافتًا وانطفأت النار تقريبًا، ومع ذلك، وفي لحظة رأى د. سايلنس أن القط كان في حالة إثارة. حكَّ صدره بمخالبه الأمامية، واحد تلو الآخر، وشعر بأنّها تنخسه. رفع ساقه بعناية شديدة وربّت على وجنته بحذر. رأى أنّ فروته كانت منتصبة على ظهره وأذناه كانت منبسطة للخلف الى حدّ ما، وكان الذيل يتأرجح بحدّة. لقد أيقظه القطّ لسبب ما بالطبع، وفي اللحظة التي أدرك فيها هذا وضع القطّ على مسند المقعد واستدار بسرعة. اتخذت ذراعاه موقفًا دفاعيًا أمامه كما لو أنّها تردّ شيئًا ما يهدّد سلامته. ومع ذلك لم يكن هناك شيء مرئي سوى ما شكَّله الباب من أشكال معلقة بغزارة في الجوّ تتحرّك بخفّة هنا وهناك.

كان عقله يقظًا تمامًا واختفت آثار النوم الأخيرة. زاد من

ضوء المصباح ونظر بحرص من حوله. أدرك شيئين في الحال:

الأول، هو أن دخان كان مستثارًا بفرح، والثاني، هو أنّ الكلب الاسكتلندي لم يعد مرئيًّا على السجادة بجوار قدميه. لقد تسلّل إلى ركن الجدار البعيد عن النافذة واستلقى بعينين مفتوحتين يراقب الحجرة التي من الواضح أنّ شيئًا مزعجًا كان يتوارى فيها.

كان هناك شيءٌ ما في سلوك الكلب أدهش د. سايلنس لأنّه كان غيرَ عادي، وعندما كان يناديه باسمه كان يتحرّك ليربّت عليه. نهض لهب وهزّ ذيله وأتى إلى السجّادة ببطء مطلقًا صوت خفيض أشبه بالزمجرة أو العواء. من الواضح أنه كان منزعجًا من شيء ما. تقدّم سيده كي يريحه، لكنّ انتباهه قد انجذب إلى السلوك الغريب لرفيقه من ذوات الأربع؛ القط.

لقد ملأه ما رآه بشيء يشبه الدهشة!

هبط دخان من على مؤخّرة المقعد ذي المسند وشغل منتصف السجّادة، وبدأ يخطو إلى الأمام والخلف بحزم في مساحة ضيقة، وكان ذيلُه منتصبًا وساقاه متصلّبتين كمدك البندقية، وكان يطلق تلك الأصوات القليلة المعبّرة عن السعادة التي لا يعرف أيّ حيوان أن يجعلَها معبّرة عن سعادة فائقة سوى

حيوان من فصيلة ماكرة. لقد جعلته سيقانه المتصلّبة وظهره المنحني يبدو أكبر من حجمه المعتاد، وكان وجهه الأسود يحمل ابتسامة تعبر عن بهجة عظيمة. كانت عيناه تلمعان بهاء. لقد كان في حالة من النشوة.

في نهاية كلّ مجموعة قليلة من الخطوات كان يستدير بحدّة ويعود مرة أخرى على طول الخطّ نفسه سائرًا بهدوء، ويخرخر بصوت يشبه صوتًا صادرًا عن طبول إسطوانية مكتومة. كان يتصرّف كما لو أنه يفرك جسده عند كاحلي شخص غير مرئي. سرت رجفة في العمود الفقري للطبيب عندما وقف وحملق في المنظر. أصبحت تجربته ممتعة أخيرًا. لفت الطبيب انتباه الكلب إلى أداء صديقه كي يعرف هل هو -أيضا- يلاحظ أيّ شيء واقف على السجادة، وكان سلوك الكلب مؤيّدًا مهمًّا. اقترب من ركبتي سيده وبعد ذلك تسمَّر في مكانه رافضًا أن يتحرّى الأمر عن قرب. شجّعه د. سايلنس ولكن دون جدوى، فقد هزّ ذيله وعوى قليلًا، ثم وقف شبه جاثٍ محملقًا في القطّ تارة وفي وجه سيّده تارة أخرى. من الواضح أنه كان مرتبكًا ومنزعجًا، وكان العواء يخرج من حلقه بشدة حتّى إنّه تحوّل إلى زمجرة شديدة تشي بالغضب. حينئذٍ ناداه الطبيب بلهجة آمرة لا يمكن أبدًا التغاضي عنها؛ ولكنّ الكلب رفض أن يقترب

مع أنه وثب استجابة لذلك الأمر. قام بحركات متردّدة... وثب قليلًا مثل كلب على وشك أن يقفز إلى الماء وتظاهر بالنباح، ثم جرى هنا وهناك على السجّادة. حتّى تلك اللحظة لم يكن هناك خوفٌ فعليٌّ في طريقته، لكنّه كان قلقًا ولا يمكن لشيء أن يقنعَه بالاقتراب من تلك البقعة التي كان القطّ يسير فيها. قام باستدارة كاملة حول البقعة، لكنّه كان يحافظ بحرص على مسافة منها، وفي النهاية عاد إلى ساقي سيّده. لم يحب لهب هذا العرض الجاري أمامه على الإطلاق. كان ذلك واضحًا جدًّا.

راقب جون سايلنس أداء القطّ بانتباه عميق دقائق دون تدخُّل. بعد ذلك نادى الحيوان باسمه. قال مداعبًا: «يا دخان، أيّها الصغير الغامض، ما لذي يلفت انتباهك؟».

نظر إليه القطّ لحظة مبتسمًا من نشوته وعيناه تومضان، لكنّه كان سعيدًا جدًّا حتى إنّه لم يستطع التوقّف. تحدّث إليه وقتًا قليلًا مرة أخرى. ناداه مرّات عديدة وفي كلّ مرة كان القطّ ينظر إليه بعينيه المتوهّجتين وهو ثملٌ من السعادة، يفتح ويغلق شفتَيه، وجسده الضخم يرتجف من الإثارة، ومع ذلك لم يتوقّف لحظة واحدة عن رحلاته القصيرة هنا وهناك. لاحظ

الطبيب ما يفعله بالتحديد؛ رأى أنه كان يخطو العدد نفسه من الخطوات في كلّ مرة؛ ستّ خطواتٍ أو سبع وبعدها يستدير بحدة ويعيد الخطوات نفسها. قاس الطبيب المسافة عن طريق رسومات الورود الكبيرة الموجود في السجادة. التزم القط بالاتجاه نفسه والخط نفسه، لقد تصرّف كما لو كان يحكّ جسده بشيء ما صلب. دون شكٍّ لا بدَّ وأنّ شيئًا كان موجودًا على تلك البقعة من السجادة، شيئًا ما أزعج الكلب وتسبّب في سرور القطّ الذي لا يستطيع أن يعبّر عنه بالكلمات.

ناداه الطبيب مرة أخرى: «دخان! دخان أيّها الغامض الأسود، ما الذي يثيرك إلى هذه الدرجة؟».

مرة أخرى نظر إليه القطّ... وبعدها استمرَّ في مشيته العسكرية سعيدًا جدًّا ومشغول البال. عندما راقبه الطبيب لحظة أدرك أنّ قلقًا ما تحرّك في أعماق نفسه بسبب هذا السلوك الغريب للمخلوق الذي أمامه.

نشأ بداخله فهم جديد للغموض المرتبط بكلّ حيوانات هذه الفصيلة وخاصّة ذلك العضو العادي منها؛ أي القطّ الأليف. حياتها الخفية وعزلتها الغريبة ودهاؤها الذي ليس له حدود وأنشطتها المراوغة بعيدة تمامًا عن فَهم البشر. تحرّك في

قلب الطبيب شعور مماثل بالخوف بدرجة غريبة عندما شاهد قدرة المخلوق الصغير على التحمّل الذي لا يمكن وصفُه، وهو يتحرّك على امتداد هذا الشريط من السجّادة مداعبًا قوى الظلام. ربّما يكون منهمكًا في الترحيب بزائر ما مخيف. إن عدم مبالاته بالجنس البشري وتفوقه الرصين صدمه بقوة ووشى له بمعنى جديد؛ ألا وهو أنّ الأهداف السرية لحياة هذا الحيوان الحقيقة تبدو بعيدة جدًّا ولا يمكن الوصول إليها، وأنّها غريبة جدًّا عن الاستقامة المباشرة المعتادة عند بقية الحيوانات. تذكر الطبيب كلمات متعاطي الأفيون عن أنّه ليست هناك عزة نفسٍ كاملة لا ترتبط بدرجة بما هو غامض، وأدرك فجأة أنّ وجود الكلب في هذه الحجرة المليئة بالضباب المسكون بالأرواح على قمة بونتي هيل كان أمرًا مقبولا له بدرجة غير عادية. لقد كان سعيدًا بأن يشعر بأن لهب الذي يثق فيه تمامًا كان موجودًا معه. كانت زمجرة الكلب الشديدة تبدو له صوتًا لطيفًا وكان سعيدًا بسماعها. ولكن حركة القطّ العسكرية كانت تجعله يشعر بالضيق.

عندما وجد الطبيب أنّ دخان لم يعره أدنى انتباه قرّر أن يتّخذ إجراءً. هل سيفرك جسده في قدميه هو أيضًا؟ قرّر الطبيب أن يفاجئه ويرى النتيجة. تحرّك بسرعة للأمام ووضع نفسه على

شريط السجادة الذي كان يسير عليه القطّ تحديدًا.

لكن لا يمكننا أن نأخذ أيّ قطّ على حين غرّة! في اللحظة التي وضع فيها الطبيب قدميه على الورود المنسوجة على السجّادة، توقّف القطّ عن الهرير فجأة، ثم جلس ورفع وجهه محملقًا بعينيه الخضراوين بأقصى درجة يمكن تخيّلها من البراءة. لقد بدا وكأنّه طفل. وبعدها، في ثانية واحدة، استأنف طريقته العادية الأليفة وحملق في الطبيب بطريقه جعلت الطبيب يشعر أنّ دخان كان مخلوقًا طبيعيًّا، أمّا سلوك الطبيب نفسه، فهو الغريب الذي يجب مراقبته. لقد كانت طريقة ذكية تلك التي جعلت القطّ يحدث هذا التغيير بسهولة وبسرعه كبيرة.

«عظيم أيُّها الممثّل الصغير»، ضحك الطبيب مُجبرًا وانحنى كي يربت على ظهر القطّ الأسود اللامع، ولكن في لحظة لمس فروته استدار القطّ وكشر بطريقة سيّئة وهو يضرب يده بأحد مخالبه. حينئذٍ مرق عبر أرضية الحجرة كظلٍّ، وبعد لحظة جلس بهدوء بجانب ستائر النافذة يلعق وجهه كما لو أنّ لا شيء يشعره بالمتعة في العالم كلّه سوى نظافة وجنتيه وشاربه.

اعتدل جون سايلنس وأخذ نفسًا طويلًا. لقد أدرك أنّ أداء القط كان يوشك على الانتهاء. في الوقت نفسه، فإنّ الكلب قد شاهد كلّ ذلك باستهجان ملحوظ. شعر الطبيب كما لو أن شيئًا ما دخل الغرفة وخرج مرة أخرى تاركًا كلّ شيء على ما كان عليه من قبل. مهما كان الشيء الذي أثار انتباه القطّ وأثاره فقد تراجع الآن.

لقد أدرك الطبيب هذا بعقله، ومن الواضح أنّ دخان أدركه أيضًا لأنه تنازل وعاد إلى مكان المدفأة ووثب على ركبتي سيده. قرّر د. سايلنس الصبور أن يعود مرة أخرى الى كتابه. نام الحيوانان من فورهما وتوهّجت النار بابتهاج وتدفُق الضباب داخل الغرفة انطلاقا من كلّ شقّ وثقب.

ساد الصمت والهدوء في الحجرة وقتًا طويلًا واستفاد د. سايلنس من الهدوء كي يدوّن ملاحظات دقيقة عمّا حدث. قام بعمل تحليل مستفيض لما لاحظه، خاصّة ما يتعلّق بالتأثير على الحيوانين، كي يستفيد منه مستقبلا في حالات أخرى. من المستحيل هنا، أو لن يكون مفهومًا للقارئ غير الملم بالمعرفة الخاصّة لطبيب نفسي مدرّب بطريقة علمية مثل د. سايلنس أن يذكر بالتفصيل هذه الملاحظات، لكن بالنسبة له

كان الأمرُ واضحًا لدرجة معينة لأنّه يجب أن ينظر ويراقب ما تبقى. حتّى الآن أدرك على الأقلّ أنّ إرادته عندما كانت ساكنة عانت الحجرة من هجوم اعترف هو به أنه من قِبل قوة نشطة جدًّا، وقد يضطرّ فيما بعد أن يقرّ بأنّه شيء ما أكثر من مجرّد قوة عمياء يطلق عليها شخصية معيّنة.

حتّى الآن كان تأثير تلك الشخصية عليه ضئيلًا جدًّا، لكنّ له تأثير مباشر على البنية العضوية للحيوانين اللّذين هما أقل منه. لقد حفزت بشدة مراكز الوجود النفسيّ للقطّ متسبّبة في حالة من السعادة الدائمة، بمعنى أنّها عملت على تقوية وعي القطّ، ربّما بالطريقة نفسها التي ينبّه بها دواء معيّن وعي الانسان، بينما قامت تلك الشخصية بإزعاج الكلب الأقلّ حساسية وجعلته يشعر بخوف وحزن غامضين. إنّ تصرّفه المفاجئ وإظهاره لهمّته أفاداه في إبعاد هذا الخوف بصورة مؤقتة، ومع ذلك كان مقتنعًا أنّه كان قريبًا منه حتّى وهو يدوّن ملاحظاته، وأنه يستجمع قواه من أجل هجوم ثانٍ.

من الطبيعي فهم أن العلاقات بين الحيوانَين قد تغيّرت بشكل واضح، والتغيير يكمن في أنّ القطّ أصبح أرفع منزلةً، واثقًا من نفسه في بقعته الخاصّة، بينما أصبح لهب ضعيفًا من جرّاء هجوم

لم يفهمه ولم يعرف كيف يستجيبُ له. مع أنّه كان خائفًا، لكنّه كان متحفّزًا ومستعدًّا لمقاومة خوف شعر أنه يقترب منه. لم يعد يشعر بالأبوية تجاه القط، أو أنّه مسؤولٌ عن حمايته. لقد توصّل القطّ إلى مفتاح حلّ الموقف وأصبح كلاهما على دراية به.

وهكذا مرَّت الدقائق، وكان جون سايلنس جالسًا مترقّبًا يتساءل متى يُستأنف الهجوم، وفي أيّة لحظة سيتحوّل عن الحيوانَين ويتّجه إليه مباشرة. كان الكتاب بجواره على أرضية الحجرة وكان قد أنهى ملاحظاته.

عندما كانت إحدى يدَيه على فروة القطّ وكانت مخالب الكلب الأمامية مرتكزة على قدمَيه، نعس الثلاثة أمام المدفأة شاعرَين بالراحة، بينما كان الظلامُ يمرُّ بتثاقل وأصبح الصمتُ أعمقَ في منتصف الليل.

أصبح كلّ شيء على ما يرام بعد الساعة الواحدة صباحًا عندما أطفأ د. سايلنس المصباح وأشعل الشمعة استعدادًا للنوم. فجأة استيقظ دخان وهو يهرّ بطريقة حادّة ومسموعة وانتصب. لم يتمطّع أو يغتسل أو يلتفت؛ لكنّه أصغى. أدرك الطبيب الذي يراقبه أنّ تغييرًا معيّنًا لا يمكن تفسيرُه قد حدث في الحجرة في تلك اللحظة.

لقد حدثت إعادة تعديل سريعة للقوى الكامنة في الجدران الأربعة. إنّه ترتيب جديد لسماتها الشخصية. لقد تمّ تدمير التوازن واختفي التناغم. كان دخان أول من شعر بذلك لأنه أكثر حساسية، ولم يكن الكلب بطيئًا في تتبع الأمر لأنه عندما نظر إلى أسفل لاحظ أنّ دخان لم يعد نائمًا. لقد كان مستلقيًا بعينين مفتوحتين على آخرهما وفي اللحظة نفسها انتصب على أردافه وبدأ يعوي.

كان د. سايلنس على وشك أن يعيدَ إشعالَ المصباح بالكبريت عندما شعر بحركة مسموعة من خلفه في الحجرة جعلته يتوقّف. وثب دخان وتحرّك خطوات قليلة إلى الأمام عبر السجّادة، حينئذٍ توقّف وأخذ يحملق بثبات، فوقف الطبيب على البساط كي يراقبه. عندما نهض عاد الصوت مرة أخرى، فاكتشف أنه لم يكن في الحجرة كما ظن أزلًا ولكن خارج الحجرة. جاء الصوت من أكثر من اتجاه، كان هناك صوت على زجاج النافذة، وفي الوقت نفسِه هناك صوت شيء ما يفرك جسده بالباب خارج الصالة. تقدّم دخان عبر السجّادة بهدوء وذيل مرتجف وجلس على بعد قدم من الباب. من الواضح أنّ التأثير الذي أفسد التناغم داخل الحجرة قد تحرّك قدمًا. من الواضح أنّ شيئًا ما على وشك الحدوث.

تردّد جون سايلنس أول مرة في تلك الليلة؛ كان التفكيرُ في تلك الغرفة الضيّقة المظلمة المختنقة الضباب التي لا تريح إنسانًا أمرًا غير لطيف. شعر د. سايلنس بخدر ضعيف يتسلّل بين جنبات جسده. أدرك بالطبع أنّ فتح الباب لم يكن فعلًا ضروريًّا للهجوم على الحجرة، لأنّه لا يمكن للأبواب أو النوافذ أو أيّ حواجز صُلبة أخرى أن تشكّل عائقًا ضدَّ ما كان يسعى إلى الدخول، ومع ذلك سيكون فتح الباب أمرًا مهمًّا ورمزيًّا، وبصورة غريزية أحجم عن ذلك.

ولكن التفت دخان لحظة، وبدا عليه عدم الصبر، واستدعى سيده لغرض ما، فتحرّك د. سايلنس بجوار المخلوق الجالس عند الباب يراقب وفتح الباب على مصراعيه عمدًا.

ما الذي حدث بعد ذلك في ضوء شمعة ضوؤها غيرُ ثابت موضوعة على رفّ المدفأة؟

انطلاقًا من الباب المفتوح رأى الردهة مضاءة بدرجة خافتة يملؤها الضباب. بالطبع لم يرَ شيئًا. لا شيء سوى المشجبِ والرماح الإفريقية الموضوعة على الحائط بطريقة كئيبة، ورأى أيضًا المقعد الخشبيّ المنتصب بطريقة غريبة على مشمع الأرضية. بدا أنّ الضبابَ يتحرّكُ ويصبح أكثر كثافة بدرجة

غريبة، ولكنّه ترك ذلك مادةً لخياله. مع ذلك، كان من الواضح أنّ دخان يفكّر في عكس ذلك، وبدا أنّ الكلبَ الجالس على السجلّات في مؤخّرة الحجرة وكأنّه يؤيّدُ حكمَه.

مرة أخرى نهض القطّ الفخور الرصين على قدمَيه وتقدّم نحو الباب وكأنّه يرشد شخصًا ما يدخل الحجرة ببطء. لم يكن للأمر أن يبدو أكثر وضوحًا من ذلك. مشى من جانب لآخر مخفضًا رأسه قليلًا، رافعًا ذيلَه المتصلّب عاليًا كعمود الراية. دار هنا وهناك مُظهرًا علاماتِ الرضا الكامل. لقد كان في محيطه. كان مُرحّبًا بالاعتداء، ومن الواضح أنّه ظنّ أنّ رفيقيه الطبيب والكلب سيرحّبان به أيضًا. عاد المعتدي من أجل القيام بهجوم ثانٍ.

تراجع الطبيب د. سايلنس ببطء متأهّبًا. لاحظ أنّ لهب كان واقفًا بجواره مواجهًا للحجرة، وجسده لا يتحرّك، بينما تتحرّك رأسه بسرعة من جانب إلى آخر مترنّحة بشكل غريب. كانت عيناه مفتوحتَين على آخرهما، وظهره شديدُ الصلابة، وعنقه ومخالبه مائلَين للأمام، وساقاه مشدودتين استعدادًا للوثب. وقف هذا الشرس محملقًا ومستعدًّا للهجوم أو الدفاع، ومع ذلك كان مرتبكًا جدًّا، وربّما كان بالفعل خائفًا إلى حدٍّ ما. كان

شعرُه منتفشًا على عموده الفقريّ وجانبيه كما لو أنّ ريحًا كانت تداعب شعرَه. في ضوء نار المدفأة الخافت كان يشبه ذئبًا أصفرَ الشعر، صامتًا، وعيناه تطلقان لهيبًا قاتمًا مخيفًا جدًّا. إنّه لهب المخيف. في الوقت نفسه تقدّم دخان صوب منتصف الحجرة متّخذًا خطوة الرفيق غير المرئيّ البطيئة جدًّا. وقف على بُعد أقدام قليلة وبدأ يبتسم وعيناه تومضان. كان هناك شيءٌ خادعٌ عمدًا في سلوكه عندما كان واقفًا على السجادة متردّدًا، ولديه الرغبة في أن يُحدث نوعًا ما من التعارف بين الدخيل وصديقه الكلب. تظاهر بأكثر الأساليب استمالة للقلب، فكان يهر ويبتسم وينظر إليهما باستمالة ويخطو خطوات سريعة تجريبية في اتجاه، وبعدها في اتجاه آخر. كان هناك دائمًا تفاهمٌ كاملٌ بينهم في كلّ شيء. من المؤكّد أنّ لهبًا سوف يستحسنُ قصدَ دخان الآن ويرضى به.

ولكنّ الكلبَ العجوز لم يتقدّم في سيره. كشف عن أسنانه ورفع شفتيه حتّى لاحت اللثة ووقف ساكنًا بعينين تنظران يمينًا ويسارًا. تراجع الطبيب قليلًا وهو يراقبُ أدنى حركة قد تحدث من حوله، وتكهّن فجأة من سلوك القطّ واتجاهه أنه لم يُدخل رفيقًا واحدًا إلى الحجرة، بل كثيرًا منهم. ظلّ القطّ يمرّ بجانبهم وينظر إليهم. كان يسعى لإقناع الكلب بمصادقة

الجميع. تراجع الدخيل الأصليّ ليحصّن نفسه، وفي الوقت ذاته أدرك القطّ أنّ الدخيل كان شيئًا ما أكثر من قوة فاعلة بلا تبصر؛ قوة غير مشخصنة، لكنّها مدمّرة. لقد كانت شخصية ما عظيمة تصاحبها شخصيّات أخرى بغرض المساعدة، وقد كان المضيفون أقلَّ درجة لكنّهم كانوا مشابهين له في النوع. أعدّ الطبيب نفسه لمواجهة أيّ شيء، وانتظر في الركن المقابل لرفّ المدفأة متخذًا وضعية الدفاع؛ لأنه أدرك تمامًا أنّ الهجوم سوف يشمله بالإضافة إلى الحيوانين، وعليه إذًا أن يكون يقظًا. أجهد عينيه في هذا الجوّ المليء بالضباب محاولًا عبثًا أن يرى ما رآه القطّ والكلب، ولكنّ ضوء الشمعة في الحجرة لاح مرتجفًا في الحجرة ولم تستطع عيناه أن تميّز شيئًا. تحرّك دخان بهدوء على أرضية الحجرة كظلّ أسودَ، وكانت عيناه تلمعان عندما أدار رأسه محاولًا بإيماءات كثيرة وهرير شديد أن يترك الأثر المطلوب.

لكنّ ذلك كان بلا جدوى. تسمّر لهب في مكانه كحفرية.

مرّت بعض الدقائق لم يحدث فيها شيء سوى أن تحرّك القطّ. بعد ذلك طرأ تغييرٌ ضخمٌ. بدأ لهب في العودة تجاه الجدار. حرّك رأسه من جانب إلى آخرَ، وأحيانًا كان يلتفت

كي يلقي نظرة سريعة على شيء ما خلفه. كانوا يسيرون نحوه محاولين أن يكونوا بجواره. أصبحت محنته واضحة من الآن وصاعدًا، وبدا للطبيب أنّ غضبه قد تحوّل إلى رعب حقيقي سيطر عليه تمامًا. كانت زمجرة الكلب تشبه إلى حدّ كبير عواءً، وحاول الكلب أكثر من مرة أن يتوارى بين ساقي سيده كما لو أنّه يبحث عن مهرب.

تأثر الطبيب جدًّا من رعب هذا المحارب الذي لا يُقهر، وشعر كذلك بالضجر بدرجة مؤلمة لأنّه لم يرَ قطّ الكلب وهو يُظهر علامات الاستسلام، وقد أحزنه أن يرى ذلك. مع ذلك فقد عرف أنه لم يستسلم بسهولة، وفهم أنه من المستحيل حقًّا أن يقيس أحاسيس الحيوان بدرجة صحيحة على الإطلاق. لا بدَّ وأنّ ما شعر به لهب ورآه كان مرعبًا حقًّا حتّى إنّه جبن في الحال. لقد واجه شيئًا ما جعله خائفًا بدرجة أكبر من خوفه على حياته. قال الطبيب بعض كلمات التشجيع السريعة وربت على شَعر الكلب الخشن، ولكن بلا جدوى. كان القلق الشديد يبدو على الكلب فعلًا. بعد ذلك انهار الكلب العجوز بسرعة حقًّا.

في الوقت ذاته ظلّ دخان بالخلف يراقب الأمر، ولكن دون أن يشترك فيه. كان جالسًا سعيدًا متوقّعًا حدوث شيء ما ظانًّا

أنّ كلّ شيء كان يسير على ما يرام كما تمنّى. كان يضغط ببطء واجتهاد على السجّادة بمخالبه الأمامية كما لو أنّ قدمَيه كانتا مغمورتين في عسل أسود. كان الصوت الصادر عن مخالبه الأمامية عندما تلمس خيوط السجادة مسموعًا بدرجة واضحة. لا يزال يبتسم، وعيناه تومضان ويهرّ.

فجأة نبح الكلب نباحًا قصيرًا حادًّا ووثب بقوة إلى أحد الجوانب. كشفت أسنانه عن خطّ أبيض في الظلمة. بعد ذلك اصطدم بساقي سيّده، فاختلّ توازنُه واندفع داخل الحجرة حيث أخذ يتخبّط بقوة في الجدران والأثاث. ولكن كان لذلك النباح أهمّيته لأنّ الطبيب سمعه من قبل وعرف معناه... أنّها صرخة من يحارب كيانًا غريبًا، وكان معنى ذلك أنّ الحيوان العجوز قد استردّ شجاعته مرة أخرى. كانت شجاعة ناجمة عن اليأس، ولكن على أيّ حال سيكون القتال مرعبًا، ففهم د. سايلنس أنّه يجب عليه ألّا يتدخل. على لهب أن يوارب أعداءه بطريقته الخاصّة.

سمع القطّ هذا النباح المخيف أيضًا، وقد فهم الأمر. لقد كان هذا أكثر ممّا توقّع حدوثه. لا بدَّ وأنّ نذير سوء غامضًا قد سرى بين الحيوانَين. وقف دخان ونظر حوله. ركض بنشاط

بجوار النافذة وسط الظلام الدامس. أولئك الذين وُهبوا الذكاء الروحاني قد يعرفون ماذا كان هدفه. ولكن على أيّ حال استطاع أخيرًا أن يقف بجانب صديقه، وكان لهذا الحيوان الصغير هدف من ذلك.

في اللحظة نفسها استطاع الكلبُ أن يصل إلى الباب. رآه الطبيب وهو يندفع داخل الردهة كوميض ضوء أصفر. لقد مرق عبر المشمع ودرجات السلم بسرعة شديدة جدًّا، لكنّه ظهر مرة أخرى في غضون ثوانٍ هابطًا درجات السلم سريعًا متعثّرًا إلى القاع، وكان مرتعبًا خانعًا متأوّهًا. رآه الطبيب ينسلُّ عائدًا للحجرة مجدّدًا زاحفًا بجوار الجدار نحو القطّ. هل كان بئر السلم هي الأخرى مسكونة؟ أكانوا واقفين في الردهة أيضًا؟ هل كان المنزل كلّه مزدحمًا من الأرض حتى السقف؟ زاد هذا الظن من الكرب الشديد الذي شعر به الطبيب عندما رأى فشل الكلب. في الحقيقة ازداد كربه بدرجة واضحة أثناء الدقائق الماضية، واستمرّ في التزايد حتّى وصل إلى ذروته. لقد أدرك الطبيب أنّ حيويته تُستنزف بصورة منتظمة، وأنّ الهجوم أصبح موجّهًا ضدّه بدرجة أكبرَ من الكلب المهزوم والقطّ المخدوع. كان يبدو أنّ الأحداث التي وقعت في هذه الحجرة الصغيرة الحديثة على قمّة بونتي هيل كانت سريعة جدًّا بين منتصف

الليل وشروق الشمس، وأنّ د. سايلنس استطاع بالكاد أن يتتبّعها ويتذكّرها. لقد حدثت بسرعة غريبة جدًّا ورعب حتّى إنّ الطبيب وجد أنّه من المستحيل أن يلاحظ بدقّة أو أن يتذكّر فيما بعد، بالتحديد ماهية ما رآه أو ترتيب الأحداث التي وقعت، فلم يكن الضوءُ منتظمًا، وكان من الصعب جدًّا تتبع حركات القطّ الأسود على السجادة قاتمة اللون. كان الطبيبُ نفسُه منهكًا جدًّا، وقد أُخذ على حين غرّة. لم يستطع قطّ أن يفهم ماهية القصور في رؤيته التي جعلت القطّ يبدو له وكأنّه ضاعف من نفسه أولًا، ثم تزايد بدرجة لا حدودَ لها حتّى إنّه أصبح اثنا عشر قطًا يتحرّكون بسرعة وصمت حول أرضية الحجرة، ويقفزون بهدوء على المقاعد والمناضد ويعبرون الباب المفتوح حتى نهاية الحجرة كظلال سوداء، كالخطيئة، بأعين خضراء لامعة تقدح شررًا في الاتجاهات كافّة. لقد كانت مثل انعكاسات عشرين مرآة موضوعة حول الجدران في زوايا مختلفة. لم يستطع الطبيب -أيضًا- أن يفهم في ذلك الوقت لماذا كان يبدو حجم الحجرة متغيّرًا، وأصبح أكبر جدًّا عن السابق، ولماذا امتدّ خلفه إلى الموضع الذي كان من المفترض أن يكون فيه الجدار. أحيانًا كانت زمجرة الكلبً الغاضب والمرتعب تبدو بعيدة جدًّا، وكان يبدو على السقف

أنه قد ارتفع عاليًا جدًّا بدرجة أكبرَ من قبل، وتغيّر مظهر الكثير من قطع الأثاث، وانتقل من مكانه بطريقة عجيبة.

كان كلّ شيء مرتبكًا ومُربكًا كما لو أنّ الحجرة الصغيرة التي عرفها تغيّرت أبعادها واتسعت وأصبحت حجرة أخرى تمامًا. هذا ما رآه وكأنّها رؤيا، بما فيها من قطط كثيرة ومسافات غريبة.

لقد حدثت هذه التَغيُّرات فيما بعد ومرة واحدة عندما كان انتباهه منصبًّا على ما يفعله دخان ولهب؛ بمعنى أنّه لاحظهما بحسّه الباطن. إن الإثارة وضوء الشمعة غير المنتظم والحزن الذي كان يشعر به تجاه الكلب وهذا الضباب غير المحتمل، كانت جميعها بمثابة مُعين ضعيف جدًّا على الملاحظة الدقيقة بالنسبة له.

في بادئ الأمر كان مدركًا فقط أنّ الكلب يُكرِّر نباحه القصير والخطير من وقت إلى آخر بضراوة في الهواء الطلق على بعد قدم تقريبًا من الأرض. لقد وثب مرة إلى أعلى وإلى الأمام كاشفًا أسنانه ومشيحًا بيديه الأماميتين بضراوة، محدثًا جلبة كتلك التي تُحدثها الذئاب عندما تتقاتل، لكنّه في الدقيقة التالية اصطدم بالجدار من خلفه. بعد ذلك، وبعد أن استلقى

قليلًا، نهض متخذًا وضعية القرفصاء، كأنّه سيقفز ثانية مزمجرًا بدرجة مريعة، مشكّلا برأسه المنخفضة شبه دوائر قصيرة. في الوقت ذاته أصدر دخان مواءً حزينًا بجوار النافذة كأنّه يصرخ ليجذب الهجوم نحوه.

حينئذٍ حدث أنّ كلَّ هذا الهجوم المخيف ابتعد عن الكلب وتوجّه نحوه شخصيًّا. قام الكلب بقفزة أخرى سقط في الركن في حالة من الغضب الشديد مُحدثًا جلبة تكفي أن توقظ الأموات، وذلك قبل أن يعاود النباح، وأخيرًا استلقى دون حركة. بعد ذلك مباشرة أصبح حزن الطبيب شديدًا بدرجة لا تُحتمل. تحرّك إلى الأمام قليلًا كي يكون في أمان عندما بدا حجاب يخيم على المشهد، وقد لاح أكثر كثافة من الضباب، وكأنّه يغطّي الحجرة والجدران والحيوانَين والمدفأة بسحابة أظلمت المكان كلّه وتوقف تفكيره. تحرّكت الأشكال الأخرى بصمت في مجال الرؤية؛ تلك الأشكال تعرف عليها من التجارب السابقة ولم يُرحِّب لها. بدأت تراوده أفكار دَنِسة، وكذلك كشفت إيعازات شريرة عن نفسها بطريقة مُضلِّلة. شعر وكأنّ ثلجًا قد استقرّ في قلبه وارتجف عقله. بدأ يفقد الذاكرة فيما يتعلّق بهويّته، وأين كان وما يجب عليه أن يفعله. اهتزّت أساسات قوته. بدا على إرادته أنّها قد أصيبت بالشلل.

حينئذٍ أصبح المشهد كالآتي: امتلأت الحجرة بهذا الحشد من القطط وكان كلّ شيء فيها مظلمًا كالليل، صامتًا، وتومض فيه نار المدفأة وكأنّها أعين مضيئة. لقد تغيّرت وتبدّلت أبعاد المكان. لقد كانت المساحة أوسع كثيرًا. تردّد أنين الكلب بعيدًا، وكانت القطط تطير بنشاط هنا وهناك من حوله. كانت تلعب لعبتها الشريرة الشرسة وهي صامتة، وتنسج هدفها الغامض على أرضية الحجرة. حاول د. سايلنس بجد أن يستجمع شتات قواه، ويتذكّر كلمات القوة التي أفاد منها من قبل في مواقف مخيفة مشابهة حيث جرفته تجربته الخطيرة أحيانًا. لكنّه لم يستطع أن يسترجع شيئًا على التوالي. لقد خيَّمت غشاوة على عقله وذاكرته وشعر بالذهول وأنّ قواه قد تشتّتت. لقد كان منهكًا جدًّا من داخله حتّى إنّه لم يستطع أن يخرج قوة التعافي من داخله.

أدرك بالطبع بعد ذلك أنه كان سحرًا قويًّا سيطر على خياله عن طريق شخصية قوية متخفّية، ولكن في الوقت ذاته لم يكن مدركًا لذلك، وبسبب كلّ السحر الحقيقي لم يستطع أن يدرك أين انتهى ما هو حقيقي وأين بدأ ما هو زائف. انخدع مؤقتًا بالدوامة نفسها التي غرَّرت بالقطّ وأودت به إلى الدمار، وذلك عبر فرحته، وهدَّدت بالسيطرة تمامًا على الكلب انطلاقًا من هلعه.

أتى صوتٌ من المدخنة خلفه مثل الريح المندفعة بشدة، تشقّ طريقها إلى الأسفل. أحدثت النوافذ صريرًا وخفقت الشمعة ثم انطفأت. أحاطه هذا الجوُّ الجليديُّ ببرودة الموت، وتعالى صوت كاسح من فوقه، كما لو أنّ السقف قد ارتفع عاليًا. سمع صوت الباب وهو ينغلق. شعر في أعماقه أنه قد ضاع بلا مأوى، ومع ذلك صمد وقاوم بينما تقترب منه ذروة القتال. لقد خطا داخل تدفّق هذه القوى التي أيقظها بيندر، وأدرك أنّه من الواجب عليه أن يقاومها حتّى النهاية، أو أنّه سيتوصّل لنتيجة سيّئة فيما يتعلّق ببيندر. اعتراه شيءٌ ما من تلك البرودة القارصة.

فجأة نهضت ببطء الشخصية التي كانت تقود المعركة طوال الوقت عبر هذا الضباب المتناثر حوله. لقد دخلت قوة ما في كيانه، وهزّته كما تهزّ العاصفة ورقة الشجر، وكانت قريبة من عينيه بمحاذاة وجهه. وجد نفسه يحملق في حطام ملامح هائلة قاتمة؛ ملامح مرعبة حتى وهي حطام.

لقد كانت محطّمة وفظيعة، وعلامة الشرّ الروحي واضحة في كلّ ملامحها المهشّمة. بدا وكأنّه يرى وجهًا وأعينًا وشعرًا لكيانَين مختلفَين. ومدة من الوقت لم يستطع قطّ أن يقيس أو

يحدّد هذين الكيانَين. لقد كانا رجلًا وامرأة، ينظران بعضهما إلى وجه بعض مباشرة وكذلك إلى أسفل صوب قلبيهما.

لقد وقف جون سايلنس الذي يحوز نفسًا ذات داع طيب غير أناني بصمود أمام كيان هذه المرأة غير المادي، والتي كان دافعها شريرًا تمامًا، وكانت مؤيدة للقوى الغامضة.

وصل الأمر ذروته عندما لمس أعمق قوّته ولملم شتات نفسه ببطء. بالطبع كان واعيًا بالجهد الذي يبذله، لكن هذا الجهد لم يكن يبدو فائقًا للطبيعة البشرية؛ لأنّه ميَّز سمة قوة خصمه، واستنجد بالصلاح الذي بداخله كي يواجه تلك القوة ويتغلّب عليها. ثارت وارتجفت القوى التي بداخله استجابة لندائه. في بادئ الأمر لم تكن تلك القوى مستعدّة كما كانت عادتها؛ لأنها كانت قد هدأت بالفعل تحت تأثير السحر الشيطاني، لكنّها في النهاية نهضت بقوة طبيعتها الداخلية الروحانية التي قد تعلّمها بعد وقت طويل وألم شديد كي يفهم الحياة، وصاحبتها القوة والثقة. بدأ يتنفّس بعمق وانتظام، وفي الوقت ذاته بدأ يستوعب طبيعة القوى التي تواجهه، ويجعلها تعمل لصالحه. بتوقّفه عن المقاومة وسماحه للتيّار المُهلِك أن ينسكب عليه دون مقاومة استخدم القوة نفسها التي أمدّه بها خصمه، وبهذا ازدادت قوّته

بدرجة هائلة. لقد تعلَّم هذه الممارسة الخيميائية الروحانية. لقد أدرك أنّ القوة تكون في النهاية واحدة ومتماثلة في كلّ مكان. إنّ الدافع هو الذي يجعلها خيرًا أو شرًا، وقد كان دافع الطبيب غير أناني تمامًا. لقد عرف بشكل غير مباشر كيف يمكنه أن يستوعب هذه الإشعاعات الشريرة ويُغيِّرها بطريقة سحرية ويجعلها تعمل لصالح أهدافه الطيبة، بشرط ألا يكون تحكمه في نفسه قد سُلِب منه أولا. ولأن دافعَه كان نقيًا، ولأنّه كان جسورًا، لم تستطع تلك القوى أن تؤذيَه.

لذلك وقف أمام تيّار الشرّ الرئيس الذي اجتذبه بيندر دون أن يشعر بذلك، وقد وجَّه التيار صوبه، وبعد أن مرَّ هذا التيار عبر مرشح التنقية الخاصّ بإيثاره، لم تستطع تلك القوى فعل شيء سوى أن زادت من مخزون خبرته ومعرفته، ومن ثمّ مخزون قوته.

وبسبب أن تحكمه في نفسه قد عاد إليه، فقد أنجز هدفه تدريجيًا مع أنه كان يرتجف أثناء فعله لذلك، ومع هذا كان الكفاح شديدًا، وعلى برودة الجوّ القارصة، إلا أنّه كان يتصبّب عرقًا. حينئذٍ تلاشت الظلال المخيفة الغامضة تدريجيًا وتلاشى تأثير السحر من نفسه، وعادت النسب الطبيعية للجدران والسقف



وانصهرت الأشكال في الضباب واختفت دوّامة القطط الوهمية.

مع عودة إدراكه لهُويّته استردّ جون سايلنس سيطرته على قوة إرادته. بدأ يتفوّه بأصوات عميقة رخيمة منظومة، وقد انطلقت في الهواء كبحر تتعالى أمواجه، وملأت الحجرة بحركات قوية متذبذبة اكتنفت بنغماتها المرتفعة كلّ ما هو شاذّ من التردّدات الأقلّ قدرًا. قام بإشارات وإيماءات وحركات معيّنة في الوقت ذاته. استمرّ في نطق هذه الكلمات عدة دقائق حتّى إنّ الصوت المتزايد سيطر على الحجرة كلّها في نهاية الأمر، وساد على كلّ ما اعترضه. لقد فهم تمامًا أنّ الخيمياء الروحية بإمكانها تغيير قوى الشرّ برفعها إلى قنوات أسمى، وأدرك أيضًا عبر دراسته الطويلة الاستخدام الخفيّ للصوت وتأثيره المباشر على المنطقة الهشة التي تنفذ فيها قوى الشرّ الروحانية أغراضها شديدة الوطأة. لقد استعاد التناغم أولًا وقبل كل شيء لروحه، ومن ثم عاد إلى الحجرة وكلّ شاغليها.

بعد أن لملم د. سايلنس شتات نفسه فعل الكلب العجوز الأمر ذاته، وقد كان مستلقيًا في مكمنه، ثم بدأ يطلق أصواتًا تشي بالفرحة، وقد كانت شيئًا ما بين النباح والقباع الذي تحدثه الكلاب عندما تسترد ثقة سيّدها. سمع د. سايلنس

طرقات ذيل الكلب على أرضية الحجرة. لمس صوت القباع والطرق أعماق الرجل وكشف له عن الآلام التي عاني منها ذلك المخلوق الأبكم.

بعد ذلك أعلن هرير حادّ عن عودة القطّ إلى حالته الطبيعية من مكمنه بين الظلال التي لاحت بجوار النافذة. تقدّم دخان على السجّادة. كان يبدو أنّه مسرور جدًّا، وابتسم بتعبير يشي بالبراءة الشديدة. لم يعد دخان يبدو كقطّ وهمي، لكنّه قط حقيقيّ يسير برصانته المعتادة الكاملة. سار إلى الأمام واختار طريقه بدقّة ولكن بعزّة نفس كبيرة تكشف عن سلسلة نسبه إلى مصر. لم تعد عيناه تحدّقان، لكنّهما كانتا تلمعان وتشعّان بالمعرفة لا بالإثارة. من الواضح أنه كان متشوّقًا لعلاج الأذى الذي لحق سهوًا ببنيته الرقيقة.

سار دخان صوب سيده، مستمراً في هريره الحاد المرتفع، وبدأ يُدلِّك ساقيه. بعد ذلك وقف على قدميه الخلفيتين وحكَّ ركبتي سيده وهو يحملق في وجهه متوسّلًا. أدار رأسه ناحية الزاوية التي كان الكلب لا يزال مستلقيًا فيها، وطرق ذيله على الأرض بوهن وشجن.

فهم جون سايلنس الأمر. انحنى وملَّس فروة هذا الكائن،

ملاحظًا الومضات الزرقاء الساطعة التي تلت حركة يده على ظهره. بعد ذلك تقدّما معًا صوب الزاوية الكامن فيها الكلب.

تقدّم دخان أولًا ووضع أنفه برقّة على فم صديقه، وكان يهرّ بينما يحكّ أنفه بفم صديقه، ويطق أصواتًا قليلة ناعمة. أشعل الطبيب الشمعة. رأى الكلب مستلقيًا على جانبه بجانب الجدار، وكان الكلب منهكًا تمامًا، والزبد لا يزال سائلًا على فكّيه. استجابت عيناه وذيله عندما سمع اسمه، ولكن كان من الواضح أنّه كان في حالة ضعف وقهر شديدين. استمرّ دخان يفرك وجنته وأنفه وعينيه، وأحيانًا كان يقف على جسده ويفرك شعره الأصفر الكثيف. بين الحين والآخر كان لهب يستجيب بلعقات قليلة بلسانه، ومعظمها كانت موجّهة بطريقة خاطئة.

لكن د. سايلنس شعر بوجدانه أنّ شيئًا فاجعًا قد حدث، وغزا الألم قلبه. ملّس جسد الكلب بحثًا عن أية كدمات أو آثار عظام مكسورة لكنّه لم يجد شيئًا. أطعمه بما تبقى من الشطائر واللبن، ولكنّ الكلبَ قلب الصحن من دون قصد فاضطرّ الطبيب لأن يطعمه بيده. كان دخان يهرّ بحزن طوال الوقت.

حينئذٍ بدأ جون سايلنس يفهم الأمر. ذهب إلى الجانب الأبعد من الحجرة وناداه: «لهب! أيّها العجوز! تعال!». في أيّ

وقت آخر كان الكلبُ يأتيه في لحظة وينبح ويقفز على كتفيه، لكنّه الآن نهض على قدميه ببطء وارتباك. بدأ يركض ويهزّ ذيله بمزيد من الرشاقة. في بادئ الأمر اصطدم بمقعد وبعدها ركض مستقيمًا صوب المنضدة. ركض دخان بالقرب منه باذلًا أقصى ما في وسعه كي يرشده، ولكن دون فائدة. كان على د. سايلنس أن يرفعه بذراعيه ويحمله كطفل لأنه كان ضريرًا.

3

بعد أسبوع طلب جون سايلنس أن يلتقي بالمؤلف في منزله الجديد. وجده يتعافى وفي طريقه إلى الشفاء، وقد انشغل فعلًا بكتابته، وقد تركت النظرة الشريرة عينيه، وكان يبدو مبتهجًا وواثقًا من نفسه. هل استعاد مرحه؟ ضحك الطبيب فور أن جلس في الحجرة المطلّة على الحديقة.

قال بيندر ممتنًّا: «لم أعد أشعر بأيّ ضيق منذ أن تركت ذلك المكان المخيف، وبفضلك...».

قاطعه الطبيب بإيماءة وقال: «لا عليك. فيما بعد سوف نناقش خططك الجديدة، وخطّتي في إبعادك عن منزلك ومساعدتك في الاستقرار في مكان ما آخر. بالطبع لا بدّ من هدمه لأنّه لا يناسب أيّ شخص حسّاس كي يعيش فيه، وأيّ مستأجر آخرَ سوف يُبتلى بالطريقة ذاتها التي حدثت لك، مع أنّني شخصيًّا أظن أنّ الشرَّ قد أُنهِك».

أخبر الطبيب المؤلّف المدهوش شيئًا ما عن خبراته مع الحيوانات فيما يتعلّق بذلك الأمر.

قال بيندر عندما أنهى الطبيب حديثه: «لا أدّعي أنّني أفهم،

لكنّي أنا وزوجتي نشعر بالراحة التامة لتحرّرنا من كلّ ذلك. عليَّ فقط أن أقول إنّني أحبّ أن أعرف شيئًا ما عن التاريخ السابق للمنزل. لم نسمع شيئًا عنه عندما انتقلنا إليه منذ ستة أشهر».

أخرج د. سايلنس من جيبه ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة. قال وهو ينظر بعينيه إلى مجموعة من الورق ويستبدلها في معطفه: «يمكنني أن أرضي فضولك إلى حدّ ما لأنني عن طريق تحقيقات سكرتيري استطعت أن أصل إلى بعض المعلومات عبر التنويم المغناطيسي الذي يساعدني في مثل هذه الحالات. يبدو أنّ الساكن السابق الذي كان يستولي عليك كانت امرأة شريرة للغاية، ماتت في نهاية الأمر شنقًا بعد سلسلة من الجرائم أفزعت كلّ أرجاء إنجلترا واكتُشِفت بمحض المصادفة. كانت نهايتها في عام 1798م؛ لأن هذا لم يكن هو المنزل الذي عاشت فيه على وجه الخصوص، ولكن عاشت في منزل أكبر بكثير في الموقع الذي يشغله هذا المنزل الآن. بالطبع لم يكن هذا الموقع حينها في لندن بل كان في الريف. كانت امرأة ذكية ذات إرادة قوية مُدرَّبة وجرأة شديدة، وأنا على قناعة بأنها استفادت من مصادر السحر الدنيئة كي تصل إلى غاياتها. هذا يُفسِّر الغل في الهجوم عليك، ولماذا لا تزال مع موتها، قادرة على الاستمرار في ممارساتها الشريرة

التي شكّلت هدفها الأساسي في الحياة».

قال المؤلّف: «هل تظن أن بعد الموت تظلّ الروح قادرة على الاستمرار في توجيه...».

أجاب الطبيب: «نعم أظن ذلك. كما أخبرتك من قبل، قدرات الشخصية القوية قد تستمرّ بعد الموت في اتجاه قوتها الدافعة نفسها، وأنّ الأفكار والأهداف القوية يمكنها أن تؤثّر في العقول المعدة بطريقة مناسبة بعد أن يزول من أبدعها بمدّة طويلة».

استمرّ الطبيب في حديثه وأكمل قائلًا: «لو أنّك عرفتَ شيئًا عن السحر لكنت علمت أنّ الفكر عملية ديناميكية، وقد يخلق أشكالًا وصورًا قد تظلّ موجودة لمئات الأعوام. هناك مجال آخر ليس بعيدًا جدًّا عن مجال حياتنا البشرية حيث يطفو فيه ما يتراكم عبر القرون من بقايا هياكل الموتى، وهو مجال مليء بالرعب والفحش من الأنواع كافة، وأحيانًا ما يتم تحفيزها لتعود للحياة مجدّدًا بإرادة أحد المسيطرين الذي يتمتّع بالخبرة؛ أي بإرادة عقل منغمس في ممارسة السحر الدنيء. أنا على قناعة بأنّ هذه المرأة قد استوعبت هذه الممارسة الدنيئة، وأنّ القوى التي كانت تطلقها أثناء حياتها قد تراكمت هكذا منذ

ذلك الحين، ولا بدَّ أنّها استمرّت في فعل ذلك إلى أن جرفتك، وبعد ذلك تمّ تفريغها من خلالي.

قد يكون أيّ شيء قد تسبّب في هذا الهجوم، لأنّه بالإضافة إلى المخدرات، هناك عواطف معيّنة عنيفة وأمزجة معيّنة تتعلّق بالعقل، واضطرابات روحية معيّنة -إن أمكن أن أسمّيها هكذا- تفتح بوّابة الوجود الداخلي مباشرة على الوعي بهذا المجال المبهم الذي قد ذكرته. بالنسبة لحالتك قام مخدر مؤثّر جدًّا بفعل ذلك؟.

أضاف الطبيب بعد هنيهة وهو يسلّم للمؤلّف المرتبك صورة مرسومة بالقلم الرصاص للملامح الكئيبة التي ظهرت له ليلًا في بوتني هيل: «لكن الآن أخبرني، هل يمكنك التعرّف على هذا الوجه؟».

نظر بيندر إلى الصورة عن قرب وهو دهش جدًا. ارتعب قليلًا عندما نظر إليها، ثم قال:

«إنه بلا شكّ هو الوجه الذي حاولت أن أرسمه. إنه وجه كئيب ذو فم وفكّ كبيرين وعين مرتخية. هذه هي المرأة».

حينئذ أخرج د. سايلنس من محفظته رسمًا قديمًا مطبوعًا

على خشب للشخص نفسه الذي أخرج سكرتيره من سجلّات «نيوغيت كالندر – Newgate Calender». كان الرسم المطبوع على الخشب والصورة المرسومة بالقلم الرصاص شكلَين مختلفين للوجه المخيف ذاته. للحظات قام الرجلان بمقارنتهما في صمت.

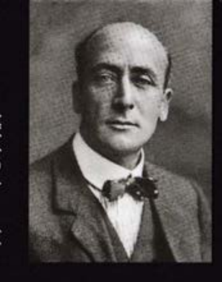
قال بيندر متنهّدًا بهدوء: «أشكر الله على حدود حواسّنا هذه، فلا بدَّ وأنّ قوة رؤية الأشياء غير المنظورة كارثة محقّقة».

قال الطبيب: «إنّها حقًّا كارثة محقّقة، وإن كان الناس جميعًا الذين يزعمون هذه الأيام أنّهم يرون الأشياء غير المنظورة هم حقًّا هكذا، ستكون أعداد المنتحرين ومختلي العقل أكبر بكثير ممّا هي عليه الآن. من العجيب إلى حدّ ما أن قوى عقل ذلك الوحش الميت قد قضت على إحساسك بالمرح، محاولة أن تستخدم عقلك لأجل نزاعها الخاص. لقد اجتزت مغامرة خطيرة يا سيد بيندر. اسمح لي أن أضيف أنك كنت محظوظًا بنجاتك منها».

كان المؤلّف على وشك أن يُكرِّر شكره عندما سمعا صوت خدش على الباب، وحينئذٍ وثب الطبيب بسرعة وقال: «لقد حان الوقت لانصرافي. لقد تركت كلبي على درجة السلم، لكنّي أفترض...».

قبل أن يفتح الباب، وجده قد انفتح على مصراعيه نتيجة الضغط فدخل كلب كبير أصفر الشعر. تحرّك الكلب بسرعة عبر أرضية الحجرة هازًّا ذيله، لاويًا جسده بسعادة، وحاول أن يثب على صدر صاحبه. لاح الضحك والسعادة في الأعين العجوز لأنّها عادت لتصفو ثانية كالنهار.





ألجيرنون بلاكوود

الدكتور جون سايلنس، أو كما يطلق عليه بعضهم "الطبيب الفذّ" الذي يحظى باحترام وتقدير واسع؛ لما يقوم به على صعيد التطبيب والتحقيق. فهو يعد أشهر محقّقي ومفسّري ومعالجي الحالات الصعبة وغير المألوفة، الخارجة عما هو معروف وذات الطبيعة الغامضة.

عندما نشر آلجيرنون بلاكوود المجموعة القصصية أول مرة في كتاب "ثلاث قصص لجون سايلنس" سرعان ما اشتهر بوصفه "سيد الحكايات الغامضة"، ثم أطلق النقّاد عليه اسم: "شارلوك هولمز عالم الماورائيات والخوارق".

لم يكن جون سايلنس مجرّد طبيب يهوى التحقيق في الأمور الشاذة للعادة في أوقات فراغه، بل كان صوفيًا مستبصرًا بارعًا في الفنون الباطنية، وأستاذًا في العلوم الغامضة، يسعى بشغف العالم لحل هذه المشكلات وفهم كينونتها.

